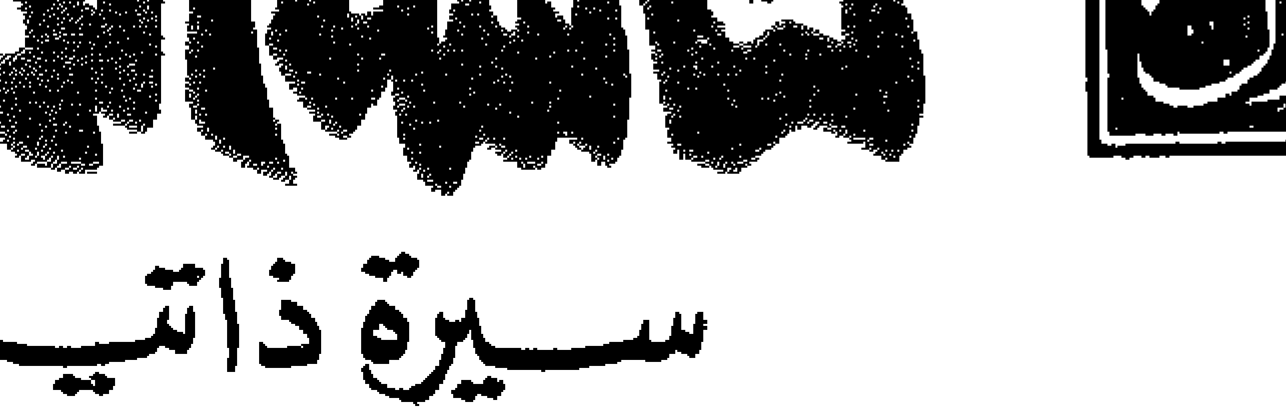
يحيى حقي









سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
العدد ٤٩٣ ـ جمادى الآخرة ـ يناير ١٩٩٢
KITAB AL-HILAL
NO : 493 — JA — 1992
FAX 3625469 : فاكس

أسعار بيع العدد فئة : ٢٠٠ قرش

سوريا ١١٠ ليرات ، لبنان : ٢٢٠٠ ليرة ، الاردن : ١٦٠٠ فلس ، الكويت . ١ دينار ، السعودية . ١٢ ريالاً ، تونس : ٢ دينار ، المغرب : ٢٥ درهما ، البحرين : ٢٠٠ر١ دينار ، قطر : ١٢ ريالاً ، الامارات العربية . ١٢ درهماً ، سلطنة عمان ٢٠٠ر١ ريال ، غزة والضفة والقدس . ٢ دولار ، الجمهورية اليمنية ٣٥ ريالاً ، الجماهيرية العظمى ١ دينار ، لندن ٥ر١ جك .

كناسة الدكان

« سيرة ذاتية »

بقلم

يحيى حقى

●

دار الهلال

الغلاف بريشة الفنان
محمد أبو طالب

مقدمة

يوافق الخامس من يناير ، عيد ميلاد ، استاذنا الجليل يحيى حقى، وايمانا بدوره الرائد والحى والمؤثر ، فى القصة والرواية ، والنقد الادبى ، والمقال الادبى ، ورعايته لأجيال من الكتاب ، ووضعه بذرة الاكتشاف والاهتمام بالفنون الشعبية .

فإن « كتاب الهلال » يشارك جمهرة المثقفين والقراء عامة ، فى تقدير وتحية هذا الفنان العظيم ، فى مناسبة جميلة .. تلك هى عيد ميلاده . فيقدم كتاب « كناسة الدكان » .

وفى يناير الماضى « العدد٤٨١ » قدم « كتاب الهلال » « خليها على الله » السيرة الذاتية التى كتبها الاستاذ يحيى حقى عن السنتين اللتين قضاهما فى الصعيد ، بمدينة منفلوط ، فى وظيفة معاون ادارة ، حيث عايش إنسان بلده ، وتعرف بعمق على الأرض والحيوان والطيور ، أى عايش الطبيعة المصرية ، الحية والجامدة ، وبانقضاء هاتين السنتين ، ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ ، شاء تدافع المصادفات ، ان ينتقل يحيى حقى ، من منفلوط ، إلى وزارة الخارجية ، وكان أول عمل له بها ، سكرتير القنصلية المصرية بجدة (١٩٢٩ / ١٩٣٠) .

وفى كتاب « كناسة الدكان » اطراف من السيرة الذاتية للكاتب ، فنعيش معه وجدانات الطفولة واليفوعة ، بمخاوفها ، وتهويماتها ، وافكارها ، وكيف تتكون افكار الطفولة ، واحكامها على ما تسمع وترى وتحلم ؟ وكيف تتكون هذه الافكار والاحكام ، وكيف تتشكل العبرة والدرس ، والحكمة الذاتية ، وكيف تحفظ الذاكرة معالم ورسوم ، الفجر الباكر للحياة الإنسانية ، لا يخدش ذلك كله ، ان يسطرها الكاتب ، وقد استوى عوده ، فنحن نعايش معه ، فى هذه الفترة ، عالمين ، طفولة الكاتب ونضجه معًا ، وكيف تتجادل معالم الطفولة وحواشيها ، مع صخب النضج وعاصف تياراته .

ولعل اصلاح « السيرة الذاتية » لا يعبر بدقة وامانة ، عن استعادة الكاتب لفترات من حياته ، سواء تلك التى خاضها فى الصعيد (١٩٢٧ / ١٩٢٨) ، أو تلك التى عاشها فى الحجاز (١٩٢٩ / ١٩٣٠) ففى كل من هاتين الفترتين يقدم الكاتب لوحة اجتماعية ، للإنسان وللعلاقات ، بحيث تكون « سيرة » الكاتب هى المناسبة التى نرى معها الصعيد ، ونعيش معها الحجاز ونجد والعسير .

والمذهب الوهابى وموقفه من الموسيقى والغناء والبدايات السرية للكشف عن البترول .

ولهذا كله تداعيات من الحياة الرحبة ومن تجارب الكاتب .

أمر آخر ، ستقابلنا - فى صفحات هذا الكتاب « جراير الموسيقى » ص ٢١٩ وما بعدها - تداعيات مشاهدة يحيى حقى للاستعراضات العسكرية ، فالوطن لا يتمثل له فى صورة واضحة ملموسة الا عند رؤيته لاستعراض عسكرى ، انه الاهتزاز للشعوب بمنعة الوطن «والغريب ان الدموع كانت تطفر من عينى اذا شهدت استعراضا عسكريا من حماة بلدى ، حتى ايام كنت أهفو من كل قلبى ان يسود السلام بين جميع الامم .. وقد حرمت من لذة هذا الهفوان منذ ان قامت اسرائيل .. وتلك هى نكبتى .» «فى ١٩٦٦/٩/٢٦» اى ان يحيى حقى كان يحلم ، وهو . يستمتع بقوة بلده العسكرية ، ان يسود السلام بين الشعوب ، وبقيام إسرائيل ، حتى قبل عدوان ١٩٦٧ ، وضعت نهاية لحلم السلام . ويحيى حقى ، يوجز هنا ما سبق ان بسطه فى مقاله « نكبة روحية » حيث يحدثنا عن حلمه باليوم الذى يسود فيه السلام والعدالة وينتهى العدوان والظلم بين الأمم وكذلك بين الافراد فى كل أمة ، ويفصل دعوته « وكما تتقارب الدخول بين الافراد فتزول بينهم الفروق الشاسعة بين الغنى الفاحش والفقر المدقع ، تتقارب الدخول بين الدول فيزول تقسيمها بين أصحاب التخمة وأصحاب المخمصة » إلى ماذا يدعو الثائر ، غير ما يدعو اليه يحيى حقى ، ثم يحدثنا عن ذات نفسه « وزال من كل قلبى كل أثر للتعصب .. وكنت اذا لقيت انسانا حيا أو أسما على كتاب أو شاشة لا اساله عن دينه أو

جنسه ، كل الذى يعنينى منه هو وفرة ما يملكه من قيم انسانية وقدرته على جذبى إلى الفضيلة والخير والجمال ، كنت لا أتهم احدا بادئ ذى بدء سوء النية .

انحطت عن كاهلى احمال ثقيلة باطلة وعشت على هذه الأحلام فى سعادة ليس فوقها سعادة .

ثم اغمضت عينى وفتحتها فإذا بى أرى العنصرية تعود فى أبشع صورها ، فتؤسس دولة اسرائيل ، توحد بين الجنس والدين ، وتراهما شيئا واحدا هو ، وحده الذى يعطى حق الانتماء اليها وبدلا من ان يسير العالم إلى الامام نحو زوال الفروق بين الاجناس والأجيال إذا به يرجع القهقرى إلى عقلية القرون البدائية المتحجرة .. انها ردة زلزلت قلبى وهدمت سعادته ..

والداهية ان هذه الدولة – اسرائيل – لا تؤسس دولتها الا بالاعتداء والسلب والنهب والاغتيال وقتل الشيوخ والاطفال .. كيف يمكن ان تكون الجريمة دعامة دولة .. هل عدنا إلى عالم يتحكم فيه العصبجية والبلطجية ؟

ثم ينعى يحيى حقى حلم السلام « جميع مثلى تحطمت .. هذه هى نكبتى الروحية ، ووجدتنى ارتد إلى التعصب ، لوطنى وقوميتى ولغتى ، لأنى رأيت ان لا دفاع الا بهذا التعصب .. أصبحت أطالب نفسى بأن اعرف عن كل انسان يقابلنى حيا أو ميتا ما جنسه

ودينه ومثله .. لأن بعض الاحباب الذين وثقت بهم فى الماضى غدروا بى أشنع غدر ، وتبين لى انهم من أحط الناس واخبثهم .. ووجدتنى مضطرا إلى مواجهة الشر والاشرار .. » كتاب « دمعة .. فابتسامة » مقال« نكبة روحية » ص ٥٠ – ٥٥ « نشر روز اليوسف ديسمبر ١٩٦٥ .

على ان اسرائيل وما تمثله من خطر داهم دائم لا تبرح اهتمامات يحيى حقى ، ففى فبراير ١٩٦٩ وهو يكتب عن العيد الالفى للقاهرة ، يلخص اهتمامات الجيل الذى ينتمى اليه (مواليد مطلع هذا القرن) فى قضيتين : القضية الوطنية ، قضية الهوية الحضارية ، ويرى انهما قضيتان ملتحمتان أشد الإلتحام . ويشير إلى التمزق فى المواقف المختلفة من الحضارة الغربية ، ويبدو أن تحقيق جلاء المحتل الأجنبى ، ألقى بظلاله على قضية الهوية الحضارية « اذا صدقت شهادتى فإن قضية الحضارة تحولت بعد ذلك من درجة الغليان إلى درجة الفتور » وقضية الهوية الحضارية لاى شعب ليست من القضايا التى تتهمش ، لان تهميشها يسبب الحيرة فى ضمير الشعب ، ويدعو يحيى حقى إلى تآزر جهود الأمة على نهج واضح نعرف منه من أين وإلى أين نسير « أى ينبغى ان تبقى هذه القضية فى درجة الغليان إلى ان نهتدى إلى حل ..

وبخاصة بعد غرز اسرائيل فى قلب الأمة العربية لا تقصد

احتلال اراضيها فحسب بل تقويض تراثها » مجلة المجلة فبراير ١٩٦٩ كتاب « صفحات من تاريخ مصر » ص ٣٩ – ٤٣ .

انت ترى ان يحيى حقى يرى ان وجود إسرائيل يضيف بعدا ، هاما ، إلى موقف المفكر الفرد ، مثلما يضيف بعداً حادا إلى مشاكل الوطن فلا نملك ترف ان نترك امورنا الحضارية ، دون أن تتخذ منها الأمة موقفا واضحا ، فقد استشعر الخطر باشارته التى ضمنها مقال من « جراير الموسيقى » من كتاب « كناسة الدكان » ، والذى احتاج إلى اضاءة خاطفة عن مجمل موقف هام من مواقف يحيى حقى الذى عاش هموم وطنه وأحلام هذا الوطن .

محمد رو ميش

أشجان عضو منتسب

سيرة ذاتية بقلم يحيى حقى

مطلوب منى أن أكتب هنا سيرتى الذاتية .

التحدث عن النفس !

ياله من لذة ساحرة ، تواضعها زائف .

ياله من ملل فظيع ، يستحب معه الانتحار .

أغلب أحاديثنا – بعد كلمتين ليس غير – تتحول من الموضوع – أيا كان – إلى الذات ، الشكوى أو الافتخار ، ولكنى أحس أنهما ينبعان من نزعة واحدة متكتمة : استجداء تبرير الوجود .

وأنت معذور حين تقرأ هذه السيرة بعد قليل إذا حكمت – ولا أقول ظننت – أننى لكى أكتبها قد تزينت وجلست أمام مرآة أتغزل ، (كم أود أن يكون بين الاختبارات النفسية دراسة مجاوبة الشخص لصورته فى المرآة : العجب ، عدم التصديق ، الافتتان ،

النفور) ولكن ثق – وهذا عشمى فيك إن كنت لاتعرفنى – أن شيئا من هذا لم يحدث . أنقذتنى حيلة بسيطة التجأت إلى مقص قطع لى فقرات من أحـاديث عـديدة ظهرت لى فى الصـحف والمجـلات (يملأون فراغها على قفانا بالمجان !) ولصقت بعضها إلى بعض ، مضيفا هنا ، منقحاً هناك ...

ومع ذلك فصورتى فى هذه المرآة هى جلسة أمام فوتوغرافى محترف ، يسلط على أضواء أعشى لها ، وأعوج رقبتى لكى تعتدل في نظره ، وأبتسم بلا سبب ، صورتى فى هذه الأحاديث مأخوذة خطفا – أحيانا وأنا فى مباذلى ، فهى أصدق . وهكذا أبرأت ذمتى منك وزيادة .

ولكن هذه السيرة ستقيس عمرى بالسنين والأيام ، وما هو بالقليل .. طظ ! لا قياس عندى لعمرى إلا بهذا اللحظات القليلة النادرة التى نبض فيها عرق فى روحى معتزاً بجذل قدسى عند التقائى بالفن ، متلقياً ومعبراً . قمة هذا الجذل عند التقائى بالشعر والموسيقى على قدم المساواة – ثم النحت ، ثم التصوير ، ثم العمارة . لست أدرى أين أضع بينها لقائى برشاقة الإنسان فى فن الباليه .

يعلو كل هذا جذل اللقاء بفن أعظم وأجل : فن الطبيعة وجمالها، لو أفضت فيه لاحتجت أن أكتب مجلداً ضخما .. لحظات

قليلة نادرة ، ولكنى عرفت بفضلها طعم السعادة وحمدت ربى عليها حمدا طويلا لا ينقطع ..

ولا ولوج إلى ساحة السعادة - فى اعتقادى - إلا من أحد أبواب ثلاثة : الإيمان والفن والحب ، لا شىء يشع بها مثل هذا الخشوع الذى أراه فى المعابد . وإذا كان الحب هو أكثرها التصاقا بالصلصال والحمأ المسنون ، وبالزمان والمكان والصدف ، فإنه شرط ارتفاع الإنسان عن مرتبة الحيوان ، وكان الإيمان أكثرها طموحا لأنه يطلب الله لا النـاس ، والخـلود فى الآخـرة لا العبور فى الدنيا ، فسيبقى الفن وسطا جامعا للطرفين ، يالها من منزلة !

وقد عرفت مقامى منذ وعيت لهذا العرق الذى ينبض في روحى، لست من الملهمين ، ولا لى صاحب فى وادى عبقر . الإلهام نور ساطع كاشف لجميع آفاق الروح والعالم ، يهبط على من يختاره دون سبب ظاهر ، فيتلقاه بغير سعى منه إليه . ماأبعد الفرق بين هذا النور وبين أزيز الشرارة الخاطفة التى أحس بها وهى تتقد أحياناً فجأة ثم تنطفىء لتوها . إنها لاتنير لى إلا درباً ضيقاً وسط غابة كثيفة ، يؤدى إلى كنز صغير لايفرح به الأثرياء .. حتم على أن أشرئب لـكى أصـطادها (وضـعت هـذا فى قطـعة بعـنوان « الشاعر بصير » - تنطفىء هذه الشرارة وتتركنى لكى أشقى

غاية الشقاء .. حتى يتفصد العرق من جبينى من أجل أن أصل إلى هذا الكنز الذى رأيته - بل قل حدسته - من بعيد ، كأننى أنحت في صخر . وحتم على أن أزيل عن العمل كل آثار العرق ، ليظن الناس أنها ولادة سهلة .

إننى ممن يدخلون معبد الفن من أشد أبوابه ضيقا وعسراً ، وليست هذه الشرارة بزوارة ، لهذا كنت من المقلين ، أسمعهم يعيبون هذا علي ، كأنهم يطلبون منى أن أكون من المدلسين . يكفينى الصدق .

ومع هذا فإن عمرى القصير فى الفن - إنه مجموع لحظات خاطفة عابرة - قد جاوز نصف قرن ، وأحمد اللّه على ذلك ، لأن هذا الطول أتاح لى أن أشهد فى نفسى تحولا عجيبا ، ولولاه لما شهدته .

كانت الذات تندلق على الموضوع في مطلع هذا العمر . هذا الاندلاق سهل ، وله فرحة ، واسترضاء للأنانية . وكنت أشعر بشيء من الضيق دون أن أعرف سببه على وجه اليقين .. سببه أننى كنت خاضعا لبداية لابد منها . إنها مرحلة ستمر ، ولكن متى وكيف .. أنها حموة الموسى !

وبدأ التحول شيئا فشيئا حتى تم أواخر عمرى ، أصبحت الآن أحس إحساسا واضحا قويا أننى لست إلا بوقا ، لا قيمة له فى

ذاته ، ولكن قيمته أن إرادة لاندرى سرها قد اختارته لكى تهمس منه – على تقطع – سليقة اللغة والتراث ، مختلطة بأشجان الإنسان منذ أعز أجدادى – ساكن الكهوف – حتى اليوم .. أشجان الإنسان – أولا – فى علاقة روحه بربه ، نسيانه لها – كما قال هو في كتابه – أشد عذاب تتوجع له وتئن .. بالكون : أين وكيف ينسلك فى نظامه ، يدخل خانته .. بالقدر : بين الثورة عليه والرضاء به .

ينعكس هذا كله على المجتمع المتقلب ليستطيع أن ينطق بلسان إنسان ويجد من يفهمه ، فليس من المفارقات قولى : إن الفن للفن هو المدخل الوحيد للفن من أجل الحياة .

ورغم أن هذا البوق قد عزلنى فقد استطعت أن أعوض لذة البوح بلذة المراقبة ، كأننى شاهد واقف على جنب ، يطل على شيء عجيب يحدث أمامه ، ويحاول فهم سره ، ثم لاينقضى عجبه منه ، الفن بهذا المعنى هو النغمة لا الوتر ، الزهرة لا البستانى ، النشوة لا قينة الحان .

ولو بقيت وحدى لزهقت روحى ، أو جفت وذرتها الرياح ، لابد للنحلة من خلية . وجدت الصحبة والراحة والاطمئنان ، كما وجدت المدرسة التى أستكمل فيها تعليمى حين قدمت مارضيت عنه من أوراقى إلى ناد عجيب ، إنه وقف على من لمسهم الفن بعصاه السحرية ، أياً كان عصره أو لغته أو دينه أو جنسه أو لونه ،

والرجال والنساء سواسية – هم داخله أحياء ، بينهم تواصل الأخوة وتراسل لاينقطع ، فسمح لى أن أنضم إليه ، عضوا منتسبا !

عرفت أننى – حتى قبل انضمامى إليه – كنت أكتب لهم . هم الذين يطلون على من وراء كتفى وأنا أكتب ، أصبح رضاؤهم هو مطلبى الوحيد . لاتخلو ورقة لى من أثر خاف لبصماتهم ، أو من إشارة مستترة إلى أعمالهم ، فلغة أهل هذا النادى صريحة « وشفرة » فى آن واحد ، ولاتجد حريتها إلا فى استعبادهم لها .

وأول مادة فى قانون هذا النادى هو توقير الكلمة سواء كانت من حروف أو أنغام أو حجر أو لون .

لاطرد من هذا النادى لجريمة سوى جريمة العبث بكرامة هذه الكلمة .. فماذا يبقى لهم ؟ .. ليس لهم جزاء سواها .

***

كان علينا فى فن القصة أن نفك مخالب شيخ عنيد شحيح ، حريص على ماله أشد الحرص ، تشتد قبضته على أسلوب المقامات ، أسلوب الوعظ والإرشاد والخطابة ، أسلوب الزخارف والبهرجة اللفظية و المترادفات ، أسلوب المقدمات الطويلة والخواتيم الرامية إلى مصمصة من الشفاه ، أسلوب الواوات والفاءات والثمات والمعذلكات والرعمذلكات واللاجرمات والبيدأنات واللاسيمات ، وأسلوب الحدوتة التى لايقصد بها إلا التسلية .

كنا نريد أن ننتزع من قبضة هذا الشيخ أسلوبا يصلح للقصة الحديثة كما وردت لنا من أوربا ، شرقها وغربها (ولا أتحول عن اعتقادى بأن كل تطور أدبى هو فى المقام الأول تطور أسلوب) .

كان علينا أن نضرب على يد من يحكى لنا قضية جنائية ، ويقول اكتبوها فهى قصة جميلة حقا ، ونقول له : القصة شيء مختلف أشد الاختلاف . وكان علينا آخر الأمر أن يقبل الناس إدعاء إنسان ما أن له الحق فى إعادة صياغة الواقع ، حتى ولو وقف عند هذا الحد ولم يضف قوله : إعادة صياغة بحرية لها أخلاقياتها التى قد تعد عند الناس زيفا أو اجتراء ، كان من العسير أن يتقبل الناس هذا ، وأعترف لك أننى إلى اليوم أنتفض من شــدة الضــيق والكرب حين أقرأ : الفنان فلان خلق هذا العمل ...

إنى لا أعترف بخالق إلا بالله وحده ، أحب أن أكتب بدلها : هذا هو ابتكار الفنان ، الفنان المبتكر ، (لعل هذا هو سر موقف المسلمين – ولا أقول الإسلام – من النحت والتصوير) .

وكان لابد لنا أن نعمل حتى يكف الناس عن سؤالنا : وما هو المقصود من هذه القصة ؟ تلك العبارة التى كانت ترد بعد ختام كل حكاية فى كتاب القراءة والمطالعة ، فالمقصود من حكاية أن عدواً

عاقلا خير من صديق جاهل ، وأن العاقل من اتعظ بغيره والجاهل من اتعظ بنفسه .

ومما زاد من المشقة والعسر فى الخطوات الأولى أن الفصحى لم تكن قد أفلحت بعد فى أن تسمى لنا أشياء نلمسها بأيدينا أو أفكارا مجردة تطوف بعقولنا ، أو ظلال عواطف تلم بقلوبنا ، وإذا صدقنا عددا غير قليل من المستشرقين لاعتقدنا أن هذه المشقة لم تكن عالقة بمرحلة البداية وحدها ، بل هى ممتدة لأنها ناجمة من خصائص الأسلوب العربى ، فهم يصفونه بأنه أسلوب يسير على خط أفقى مستقيم ، سطح ولاعمق ، لايتركب منه بناء ينمو شيئا فشيئا ، إن دلق البضاعة كلها دفعة واحدة أمام الزبون ، إنه - كما فى مآدبنا - وضع جميع الأطباق على المائدة فى رتل متلاصق قبل جلوس الضيوف . فالذى ينبغى أن يؤكل ساخنا يؤكل باردا ، ويزعمون أن أسلوب اللغات الغربية - وبالأخص الإنجليزية والفرنسية - هو أسلوب يشبه عمل فنان يرسم لوحة ، انه يبنيها خطا خطا ولمسة بعد لمسة من فرشاته ، ناظرا طوال الوقت إلى التناسب والشكل التركيبى للوحة وموضع كل خط وكل لمسة فيه ، بل إنهم يذهبون إلى حد تفضيل الجملة الاسمية - وهى من خصائص لغاتهم - على الجملة الفعلية وهى من خصائص العربية ..

وكل هذا كذب فى كذب ، وحماقة ليس بعدها حماقة ، فليست

اللغة كائنا مستقلا عن الفكر الذى يقودها ، فحين يلزم الفكر المستخدم للعربية ماينبغى لكل فكر ، من وضوح وبصر وجد وعمق فإن لغتنا الفصحى لن تكون أقل قدرة على الأداء من لغات هؤلاء المستشرقين الأجلاء ، فالعيب ليس فى اللغة ، بل فينا نحن أنفسنا .

ولكن ينبغى لى أن أعترف وأقرر أن مشقة الخطوات الأولى فى انتزاع أسلوب القصة من أسلوب المقامات تمثلت أكثر ماتمثلت لدى من كان يقرأ الآداب الغربية بلغتها غير مكتف بالترجمات إن وجدت ، فإن الذى كان يراد إقتباسه من الغرب لا فن القصة وحده بل أسلوبها وصياغتها ، وتستطيع إلى اليوم أن تلحظ الفرق بين أسلوب قصصى له أطلاع على الآداب الغربية بلغاتها وأسلوب قصصى لا يعرف غير العربية .

وقد داعبتنا اللغة العامية أول الأمر فهممنا أن نجرى إليها – لا هربا من مشقة الفصحى فحسب – بل لأننا كنا نتلهف أن يكون الأدب صادق التعبير عن المجتمع ، ولكننا تحولنا – كأنما بدافع غريزى – إلى الفصحى ، لأنها هى الأقدر على بلوغ المستويات الرفيعة ، على ربط الماضى بالحاضر ، على توحيد الأمة العربية . ومن الممتع أن ندرس كيف ساير تأثير العروبة على الأدب المصرى تأثيرها على سياستنا القومية .

ومما زاد من المشقة والعسر فى الخطوات الأولى أننا - نحن القصصيين - كنا نعيش فى شبه عزلة عن أبناء الفنون الأخرى ، مع أن المشكلة عندنا جميعا واحدة ، ولابد أن يتنفع بعضنا بتجارب بعض ، لكى يتساوى الخطو إلى الأمام على الأقل فى جميع ميادين الفن . بسبب هذه العزلة كان لابد لعملنا أن يكون هشاً وفقيراً مهما ملك من ماله الخاص ، (لهذا الفقر أسباب أخرى سأعرضها فيما بعد) أقول : كنا فى شبه عزلة ، إذ كانت لنا اتصالات لم تتصف بالنشاط مع أبناء الفنون الأخرى ، نعد أنفسنا زمرة واحدة تضمنا وتضم مختاراً ، وسيد درويش ، ويوسف كامل ، وأحمد صبرى .. وعدداً آخر غيرهم .

والعجيب أن هذه العزلة ممتدة حتى اليوم ، بل يخيل لى أنها تفاقمت ، وكان المنتظر وقد زاد عدد المشتغلين بالفنون اليوم عن عددهم فى أيامنا الأولى أن تعمل هذه الزيادة على تيسير القضاء على تلك العزلة ، فإذا بها تزيدها مشقة ، فلا لقاء فى زحام شديد .

***

ولم نكد نضع أقدامنا على أول الطريق حتى طارت بنا آمالنا ، كأن القصة وقد سكتت لاقتحامنا لحماها ، فأردنا أن ندخلها بحمارنا ، لم نكتف بالاقتداء بالقصة المستوردة ، بل أصبحنا نطمع فى أن ندخل تجديداً على شكلها داخل إطارها الذى عرفناه

لها ، أى دون أن نخرج عنه ، فكان منا من سبق إلى كسر الترتيب الزمنى ولجأ إلى « الفلاش باك » ، أو من زعم أنه كتب قصة لها شكل دائرى ، أى تنتهى من حيث بدأت .. الخ الخ .

ثم قفزنا بعد ذلك سريعا إلى مطلب أهم ، أن تكون لنا قصة مصرية لحما ودما ، تنبع من خصائصنا وتدل علينا .. لكننا لم نستطع أن نتقدم في هذا الطريق (لذات الأسباب التى وعدتك أن أعرض لها فيما بعد) وكان لابد لهذا المطلب أن ينتظر حتى تمد الفنون الشعبية رواقها فى ظل الاشتراكية ، وتمثل تحقيق هذا المطلب أكثر ما تمثل في المسرح .

يجب أن أعترف أن أغلب المنجزات فى هذا الميدان غير مقنعة ، وتبدو أحيانا مضحكة . إن اعتناقنا للاشتراكية لم يفرض أن يندرج أدبنا وآداب الأمم الاشتراكية فى وحدة واحدة ، ناجمة من وحدة المذهب ، أو وحدة المجتمع الذى قام أو يراد إقامته ، ولكننا قلنا إن اشتراكيتنا مصرية ليست صورة طبق الأصل من نظام اشتراكى أجنبى . لذلك ساغ حتى فى ظل الاشتراكية السعى إلى ظهور أدب محلى صميم .

وبجانب هذا التيار تيار آخر، تيار ثقافة مترفة تقول بعالمية الفن دون نظر إلى انقسام هذا العالم إلى اشتراكية ورأسمالية ، فالفن عنده جوهر واحد لا يقبل الانقسام ، وله هدف واحد لايتعدد .

وقد حاولنا عقد صلح بين التيارين فقلنا : إن كان الفن نهراً عظيما فلأنما له روافد عديدة ، كل منها له ذاتيته وخصوصيته ، ويجب أن نعمل وفقا لهذا الفهم .

لكى أشرح الأسباب الأخرى لهذا الفقر الفني الذى عانيناه في مراحلنا الأولى دعنى ألجأ إلي التشبيه فإنى من المغرمين به ، حصيرة الصلاة عندنا ، قد تعد نقوشها – مهما بلغت بساطتها – تعبيرا عن ذوق فنى جميل وأصيل ، ولكن اقلبها وتأملها ، ستجدها مجدولة من ساقين لا غير من سيقان القش ، حتى بالعرض وحده ، دون الطـول ، ارتفـاع سـطحها عن الأرض يحدده غلظ الساق وحده ، حقا لها ظاهر وباطن ولكن ليس لها عمق . قارن بها سجادة عجمية ، دعك من فنون سطحها – بهرجة ووقار وأصالة مولودة فى عصر حديث – اقلبها وتأملها ، ستجدها سيمفونية من خيوط متشابكة من عقد عديدة ، وكلما زادت العقد زادت القيمة ، لها دون الحصيرة عمق وتشابك .

كان المجتمع الذى بدأنا كتابة القصة فيه يشبه الحصيرة ، فكان لابد للقصة أن تكون مثلها فى البساطة والسطحية ، وكيف « تريد لها أن تثرى وتتعمق دون أن يكون بجانبها حركة نشيطة فى الفلسفة ، فى الاجتهـاد الدينى ، فى الدراسات التاريخية واللغوية – مجتمع بسيط ، لاانكشاف بعد فيه لفروق بليغة ومصادمات بين المصالح ، كان هناك جوار لا اشتباك .

إن ثراء نسيج المجتمع في الحضارة الغربية ليس سببه تشابك خيوطه فحسب ، بل لأن هذا التشابك يجد أسانيده فى مقولات الفلسفة وعلم الاجتماع والاقتصاد ، ولكن المجتمع الغربى يشترى هذا الثراء الآن بثمن باهظ ، هو تفتت الشعب إلى خلايا مغلقة على ذواتها ، لاتدافع إلا عن مصلحتها هى أولا ، فلنحذر هذا ..

وقد تجلى هذا الخلاف بين حصيرة الصلاة والسجادة أكثر ماتجلى فى الترجمة ، فهى ليست نقل لفظ إلى لفظ ، وحتى لو كان الأمر كذلك ففى اللغات التى نترجم عنها تنشأ كل يوم تقريبا ألفاظ جديدة ليس لها مقابل عندنا ، إنها ليست ألفاظا مبتكرة ، فقد انقطع عهد الابتكار فى اللغة ، بل هى ألفاظ مألوفة ولكن خصصت لها معان جديدة لم تكن لها من قبل ، فاستقلت بها دون معانيها السابقة ، أو مع معانيها السابقة ، وأصبحت الألفاظ غير معبرة عن معانيها فحسب ، بل عن علاقات يعكسها نسيج المجتمع .. فلا يمكن أن نترجم سجادة عجمية إلى حصيرة صلاة .

ولا ينطبق هذا الكلام بطبيعة الحال على الترجمة في ميدان العلوم، ولكن أصدق مثال عليه تجده فى المسرح ، وهو أكثر الفنون عكسا للمجتمع إذ يتكلم بلغته . ما أكثر ازدحام مكتبتنا العربية بمسرحيات مترجمة ، لماذا لانعترف أن العديد منها غير مفهوم ، بل بعضها يدعو إلى الضحك .

لاشك أن مجتمعنا يتحول بسرعة من هذه الحصيرة إلى تلك السجادة ... ومع انتشارالتعليم ومحو الأمية سيبرأ إنتاجنا الأدبى من الضحالة والسطحية ، ومن هذا القدر الهائل من البديهيات ، وكل بديهية لها رنين الحكمة ...

كل هذا ولم أقل لك كلمة واحدة عن سيرتى وحياتى .. إليك بعضا مماتريد ..

***

فى أوائل القرن التاسع عشر قدم إلى مصر من مسلمى المورة شاب اسمه ابراهيم حقى ، كانت خالته الست حفيظة - خازندارة قصور الخديوى اسماعيل ، وبواسطتها عين قريبها الوافد فى خدمة الحكومة المصرية . عمل فترة بدمياط ، وتدرج فى الوظائف حتى أصبح مديرا لمصلحة فى بندر المحمودية بمديرية البحيرة .

وظل أهل ذلك البندر يذكرون له - بعد وفاته بسنوات - صلاحه وتقواه وجمال خطه . وقد رزق ابراهيم حقى بثلاثة أبناء هم محمد ، ومحمود ، ومحمود طاهر ، وكامل ، واستطاع أن يقتنى حوالى : مائة فدان .

التحق ابنه الأكبر محمد - وهو أبى - بالأزهر عدة سنوات ثم انتقل للدراسة بمدرسة فرنسية ، ولكنه لم يصبر حتي يتم تعليمه ،

وآثر الالتحاق بوظيفة بوزارة الأوقاف ، وإن ظل مشغوفا بالقراءة ، مغرما بحفظ روائع الأدب العربى القديم ... روى لنا أنه خلال مجاورته بالأزهر كان يصلى الجمعة ذات مرة فى مسجد غاب عنه إمامه ، ولأنه كان معمما فقد دعاه المصلون إلى ارتقاء المنبر وإلقاء الخطبة .. فلم يجد مخرجا من تلك الورطة إلا أن يتلو عليهم جزءاً من مقامات الحريرى أوله « أيها السادر فى غلوائك ...» فدهش المصلون لفصاحته وحضور بديهته ، وإن لم يفهموا من الخطبة شيئا !

وكذلك لم يتم الابن الأوسط محمود طاهر حقى – وهو عمى – تعليمه ، ولكنه اتجه بكل قواه إلى الكتابة والتأليف ، ومن أهم مؤلفاته رواية « عذراء دنشواى » التى نشرها مسلسلة سنة ١٩٠٦ فى صحيفة كان يصدرها اسمها « المجلة الأسبوعية » ، وكان الشاعر أحمد شوقى ينشر فيها بعض قصائده بأسماء مستعارة .

ولعمى محمود طاهر حقى عدد كبير من القصص والمسرحيات بعضها مطبوع ، وقد عمل فترة طويلة سكرتيرا للفرقة القومية منذ كان مديرها الشاعر الكبير خليل مطران .

وفى المحمودية كان من الطبيعى أن تتوثق العلاقة بين أسرة جدى وأسرة « السيد حسين » وكيل مكتب البريد ، فهو الآخر من أصل تركى وزوجته أرناءوطية (ألبانية) . وما لبثت هذه العلاقة أن

تطورت إلى نسب ، إذ تزوج الابن الأكبر محمد من « سيدة » ابنة السيد حسين . وأثمر هذاالزواج عددا كبيراً من الأبناء ابراهيم ، واسماعيل ، ويحيى ، وزكريا ، وموسى ، وفاطمة ، وحمزة ، وصالح ، ومريم ...

كنت أنا الابن الثالث بين إخوتى .. ولدت فى ٧ يناير سنة ١٩٠٥ بحارة الميضة وراء مقام السيدة زينب فى بيت ضئيل من أملاك وزارة الأوقاف . ورغم أننا غادرنا حى السيدة وأنا لاأزال طفلا صغيرا ، فهيهات أن أنسى تأثيره على حياتى وتكوينى النفسى والفنى ، فما زلت إلى اليوم أعيش مع الست « ماشاء اللّه » بائعة الطعمية ، والأسطى حسن حلاق الحى ، وبائع الدقة ... ومع جموع الشحاذين والدراويش الملتفين حول مقام « الست » ..

كانت والدتى شديدة التدين ، مغرمة بقراءة القرآن الكريم وكتب الحديث والسيرة النبوية ، وكانت تختار أسماء أبنائها من صفحات القرآن ، فاذا اقترب موعد الوضع فتحت المصحف على أى صفحة واختارت أول اسم يقابلها ... وكثيرا ماكانت تقرأ علينا صفحات من البخارى والغزالى ومقامات الحريرى ...

وكان أبى مفتونا بالمتنبى يحفظ كثيرا من شعره ويلقيه علينا فى جلساتنا المسائية ... وكان مغرما بالقراءة إلى أبعد حد حتى إنه كان يقرأ وهو يسير فى الطريق ... ومازلت أذكر كيف عاد لنا

ذات يوم وجبهته مبطوحة قد نبتت فيها حبة زرقاء ، فقد صدم عمود الترام . وهو سائر يقرأ فى صحيفة ! .

وهكذا نشأت فى بيئة تعشق القراءة ... والدتى وأبى .. وكذلك أخى الأكبر ابراهيم الذى يعرفه جميع باعة الكتب فى مصر ، جديدها وقديمها ... لقد كون لنفسه مكتبة عربية وانجليزية كانت أول معين استقيت منه .. وقد شارك أخى ابراهيم في تحرير جريدة « السفور » ... أما أخى اسماعيل فقد ألف مسرحية لم تمثل ، بالاضافة إلى جهود عمى محمود طاهر حقى فى القصة والمسرحية والصحافة ..

أذكر أنه حينما كانت تظهر قصيدة لأحمد شوقى في الصفحة الأولى من « الأهرام » كان البيت كله يقف على رجل.. كنا نقرؤها بصوت عال ونحفظها ونظل نرددها في مختلف المناسبات ، من هذه القصائد قصيدته فى البكاء علي خلع السلطان عبد الحميد ومازلت إلى اليوم أحفظ مطلعها :

« سل «يلدزا » ذات القصـ ـور هل جاءها نبأ البدور

لو تستـــطيع إجـــابة لبنتك بالدمـــع الغـزير »

وكان عمى محمود طاهر على صلة وثيقة بشوقى ، وعن طريقه أتيح لى الجلوس إلى شوقى عدة مرات سواء في محل « صولت » الحلوانى أو فى بيتـه . وفى إحـدى تلك المرات أعطـــانى قصـــته

« أميرة الأندلس » وهي مخطـوطة لأبدى فيـها رأيي ، وكنت وقتها لا أزال شـابا في السـادسة عشرة ، ومع ذلك فقد تجرأت ونقدتهـا بشيء من العنف ، وكـان ذلك غرورا مني ندمت عليه فيمـا بعد ...

كان الجو الغالب على بيتنا يتلخص في ثلاثة مظاهر :

الأول : شغف برشاقة اللفظ ، والابتهاج بالتوفيق في العثور على الكلمة المناسبة للمعنى . لذلك كانت الخطابات التي نتبادلها تكتب بأسلوب أدبي متأنق .

الثاني : نوع من الحياء يتنبه لزلة اللسان مهما كانت طفيفة .

والمظهر الثالث يتمثل في قدر من الانطوائية لأننا كنا أسرة موظفين من أصل تركي وليست لنا أملاك تذكر ، بعد أن أساء الأبناء إدارة الأراضي التي ورثوها عن جدي ، حتى أصبح وجودها كعدمة ، ثم ما لبثت أن تبددت .

بدأت تعليمي في كُتَّاب السيدة زينب ، ثم التحقت – كسائر إخوتي – بمدرسة والدة عباس ، كانت مدرسة مجانية من أوقاف إلهامي باشا ، وكان يلتحق بها أبناء الفقراء في حين كان أبناء الأغنياء يلتحقون بمدرسة الناصرية . وكانت تلك المدرسة تخلع على تلاميذها حللا خاصة كتب عليها بالقصب المذهب « مدرسة والدة عباس باشا الأول » .

قضيت فى المدرسة الابتدائية خمس سنوات غاية فى التعاسة . كانت ضربات عصى المدرسين تجعل الدنيا تظلم فى عينى ، كما كنت أتعذب عذابا هائلا وأنا أحشر دماغى بمعلومات لا أكاد أفهم منها شيئاً ولا لماذا يعلمونها لنا ... أؤكد لك أنى لم أفهم الفرق بين الرى الدائم ورى الحياض إلا بعد أن تخرجت وعملت معاون إدارة فى الصعيد ..

كان طبيعيا أن أرسب فى السنة الأولى الإبتدائية ، ولكنى لم أرسب بعد ذلك قط .. كنت أنجح كى أفر من هذا الجحيم ، ولكى لا أغضب أمى أو أجرعها خيبة الأمل .. كانت هى عماد الأسرة .. ربتنا بيديها ، تخيط ثيابنا ونحن ستة ، تطبخ وتطعمنا متكلفة فى ذلك أشد العناء ، متحايلة للوصول بنا مستورين لآخر الشهر ، إذا قدمت لنا طعاما نزرا لايغني ولايسمن من جوع ضاحكتنا وصبت علينا ضحكة مرحة ، كأنما اجتماعنا حول المائدة لعبة مسلية ، فكنا – علي ضحكها – ونحن نعلم أنه تمثيل ، نجد الطعام وفيرا مشبعا لذيذا ، وهى التى ربتنا بلسانها ، تحثنا بغير الحاح على الاستقامة والجد والمذاكرة ، كسوط صاحب الجواد الأصيل ، له وقع وليس له لسع .

لايفوتنى أن أذكر لمدرسة « والدة عباس » ميزتين :

الأولى أنها هى التى خرجت الزعيم مصطفى كامل فقد كان

بيته قريبا منها ، وحينما التحقت بالمدرسة كان كل المدرسين الذين علموه قد تركوها الا واحدا هو الشيخ عبد المنعم ، وكان يلقى الاحترام والتبجيل من الجميع لأنه كان يوما مدرسا للزعيم .

أما الميزة الثانية لتلك المدرسة فتتمثل فى تلك الصداقات العميقة التى ربطتنى بعدد من تلاميذها ، فمازلت محتفظا إلى اليوم بصداقتي للأستاذين محمد عصمت ومحمد لبيب الجبالى ، ومازلت أذكر بالخير صديقى المرحوم محمد ذو الفقار الأخ الأكبر للممثل صلاح ذو الفقار ، والمرحوم مصطفى حسن النائب العام السابق .. كلهم تعرفت بهم فى مدرسة « والدة عباس » الابتدائية ..

حصلت على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية سنة ١٩١٧ ، التحقت بالمدرسة الالهامية الثانوية (بنباقادن الآن) وكانت تتبع نفس الوقف الذى تتبعه مدرسة « أم عباس » ، ومنها حصلت على شهادة الكفاءة ، ثم انتقلت إلى المدرسة السعيدية ، فالخديوية ومنها حصلت على البكالوريا سنة ١٩٢١ وكان ترتيبى الخمسين بين المتقدمين لتلك الشهادة .

كنت فى صباى أتمنى أن أصبح طبيبا لأنى أعشق اكتناه ذلك المجهول الكامن داخل جسم الإنسان ورأسه ، فأردت أن أتفرغ لدراسة أسباب علله وأمراضه ، وأسهم فى إسعاف من يحتاجون إلى العون والمساعدة ، وكذلك كنت أومن بأن المهنة الحرة هى

أفضل عمل للانسان فهو فيها سيد نفسه .. وبعد حصولي على الكفاءة وقفت في مفترق الطرق ...

كان من الطبيعي أن ألتحق بالقسم العلمي لأ حقق أمنيتي ولكني خشيت أن أرسب سنة أو أكثر ، وأشفقت أن أحمل الأسرة مزيدا من الأعباد والمصروفات ، فآثرت الالتحاق بالقسم الأدبي .

والتحقت بعد ذلك بمدرسة الحقوق العليا ، في وقت كانت تمثل فيه قمة التعليم العالي ، لا يدخلها إلا المحظوظون ، وكان من زمالائي فيها الأساتذة : توفيق الحكيم ، والدكتور عبد الحكيم الرفاعي ، وسامي مازن ، وعبد الكريم أبو شقه ، والمرحوم حلمي بهجت بدوي ، ودرس لنا نخبة من أساتذة القانون وفقهائه ، أذكر من بينهم الاستاذ الشيخ أبو زيد مدرس الشريعة .. كان رجلا دائم الابتسام يعالج الشريعة حتى يحيلها شرابا سائغا لو استطاع لصبه في حلوقنا صبا .. والأستاذ أحمد أمين ، العالم الثبت في قانون العقوبات ،والمرحوم الدكتور أحمد نجيب الهلالي .. حين دخل علينا أو ل مرة حسبناه – لنحافته وصغر سنه – تلميذا مثلنا ، وما كاد يتكلم حتى انعقدت ألسنتنا وفغرت أفواهنا إعجابا به ، فقد هدم في درسه الأول كل مابين أيدينا من كتب قديمة بالية بكلام جديد تشع منه الحياة ..

حين التحقت بكلية الحقوق كنت متشبعا بمبادىء الحزب

الوطني، فقد كانت « اللواء » هي جريدة الأسرة المفضلة ، وإن لم يمنعنا ذلك من التعلق بسعد زغلول ومتابعة أحداث ثورة ١٩١٩ بحماسة شديدة ، فما أكثر ما كنت أصحب أبي وشقيقي إبراهيم واسماعيل إلي الأزهر أو بيت الأمة ، أو شادر مقام في ساحة فسيحة لأستمع إلى خطباء الثورة ، وتبهرني أصواتهم المجلجلة حتى أصبحت الخطابة من بين هواياتي .

وأحيانا كان الانجليز يسدون الطرق المؤدية للأزهر ليمنعوا الجماهير من حضور اجتماعات الثورة ، فكنت أسير مع أبي وأخوى في طرق ملتوية وأزقة ضيقة حتى نصل الى الأزهر ونستمع إلى خطباء الثورة ، ونردد مع الجموع أناشيدها ، ومازلت أحفظ من بينها نشيد مطلعه :

رسول السلم إلى مصر   انثر في الطرق لنا الزهر

وكان أفراد الأسرة يتخاطفون بلهفة شديدة مايصل إلي أيدينا من منشورات الثورة .. وقد سرت في بعض المظاهرات الصاخبة التي كانت تكتسح شوارع القاهرة ، وحين كان الانجليز يطلقون علينا النار كنت أجرى مع الجارين .

ومازلت أذكر إلى اليوم الجموع الغفيرة من جميع طبقات الأمة التي خرجت لتشييع جنازة ابن القباقيبي في حي الركيبة وكان قد قتل برصاص الإنجليز ..

فى تلك الأيام قرأت كل ماوقع فى يدى من كتابات عبد اللّه النديم ومصطفى كامل ، وكل مانشر عن حادثة دنشواى .. وهكذا التحقت بمدرسة الحقوق وقد تشبع وجدانى حتى الثمالة بحب مصر .. وعندما حدث الخلاف المعروف بين سعد وعدلى ، بين الوفد والأحرار الدستوريين .. اجتاحت بيتنا موجة عارمة من الكآبة وخيبة الأمل لفرقة الصف الوطنى ..

قبل أن ألتحق بمدرسة الحقوق كنت قد التقيت بمؤلفات المنفلوطى وجبران خليل جبران .. جرت دموعى مع « ماجدولين » ، وترنمت بشعر المهجر وأنا فى الخامسة عشرة من عمرى .. وقادنى أخى ابراهيم فى دروب الأدب الانجليزى فقرأت كتبا لديكنز وروبرت لويس ستيفنسون وآديسون وغيرهم ..

أما فى الحقوق فقد كان علىّ أن استكشف قارة جديدة مختلفة عن منطقة الأدب والفن والشعر والتاريخ والسياسة التى تعرفت عليها من قبل .. عرفت فى مدرسة الحقوق أن القانون رياضة ذهنية عليا ، تقارع فيها الحجة الحجة ، والإثبات عدم الإثبات .

ودخلت مع زملائى فى المدرسة فى سباق حامى الوطيس كانت حدته تزداد كلما اقتربنا من التخرج .. وانكببت على كتب القانون ألتهمها وثمة حلم يراود خيالى بالسفر لإتمام دراستى فى جامعات أوربا ، حيث البحث العلمى الحر وعباقرة فقهاء القانون وكاد الحلم

يتحقق لولا هامش فى أحد الكتب عن الاتفاقية المصرية السودانية بشأن تسليم المجرمين ، أهملت ذلك الهامش وكان موضع سؤال ، فجاء ترتيبى الرابع عشر فى الليسانس ، وسافر الأربعة الأوائل : حلمي بهجت بدوى ، وطه السيد نصر ، وعبد الحكيم الرفاعى ، طالب رابع يدعى زهدى .. فى بعثات إلى الخارج ، فى حين بقيت أنا أقضى فترة التمرين بنيابة الخليفة ثم أعمل محاميا بالاسكندرية ودمنهور فترة قصيرة ، عينت بعدها معاونا للادارة ..

ومن أبرز آثار دراستى للحقوق شغفى الواضح بدراسة الجريمة والمجرمين .. لعلها مخلفات رغبتى فى دراسة الطب واستكشاف كنه تكوين الانسان الجسمي والعقل .. وبلغ من هذا الشغف أننى انشغلت فترة عقب تخرجى بكتابة عدة أبحاث عن الأحداث المنحرفين مدعمة بالاحصاءات والمقارنات ، وألقيت بعض المحاضرات العامة حول هذا الموضوع .

فى أول يناير سنة ١٩٢٧ تسلمت عملى الجديد معاناً للإدارة بمركز منفلوط حيث قضيت أهم سنتين في حياتى على الإطلاق .

أتيح لى خلالهما أن أعرف بلادى وأهلها وأخالط الفلاحين عن قرب ، وأعيش فى الحقول بين نباتها وحقولها ، وآكل بصلها وسرسها ، بل لقد وجدت فيهما سعادتى عندما أصبح الحمار يزاملني طول النهار .

أهمية هاتين السنتين ترجع إلى أربعة أشياء :

أولها : استقلالى فى المعيشة ، أدخل وأخرج كما أشاء ، ومع ذلك ففى كل مرة كنت أضع فيها المفتاح فى الباب إذا عدت متأخراً بالليل ، كنت أشعر بشىء من التهيب كأنى فى بيتنا القديم وأمى تنتظر .

والثانى : اتصالى المباشر بالطبيعة المصرية والحيوان والنبات : كنت قبل ذلك لا أفرق بين القمح والشعير ،ولا أعرف عن الريف سوى منظر الحقول كما يبدو من نافذة القطار . ولعلك تلحظ فى القصص التى كتبتها فى ذلك العهد مقدار التحامى بالنبات والحيوان .. حقل القطن ، الجاموس المربوط على البرسيم الخ ..

ثالثاً : اتصالى المباشر بالفلاحين والتعرف على طباعهم وعادتهم .

رابعاً : اتصالى المباشر أيضاً ، وبحرية ، بالجنس الآخر ، وقد عشت هناك تجربة حب خصبة عميقة ..

وسجلت تلك المرحلة على مستويين :

المستوى الوصفى فى « خليها على الله » . ، وجعلت محورها تأمل أسباب تلك الهوة التى تفصل بين الحكومة والفلاحين .. وقد دهشت أشد الدهشة وأنا أكتبها بعد مرور ثلاثين سنة على التجربة ، ودون أن تكون لدى أى مخطوطات أو مذكرات ، ومع ذلك

فقد وجدتنى لا أزال أعيش بكل وجدانى فى منفلوط سنة ١٩٢٧ و ١٩٢٨ .

أما المستوى الثانى فهو التصوير القصصى فى مجموعة « دماء وطين » ، وهى عبارة عن صعيديات تدور في منفلوط ، ولها بقية فى مجموعة « أم العواجز » مثل قصتى « إزازة ريحة » و« حصير الجامع » .

***

قد يكون من المناسب أن أتوقف قليلا هنا لأروى قصتى مع القصة ، ومع الكتابة بشكل عام ..

بدأت أكتب فى سن مبكرة ، فى حوالى السادسة عشرة .. ومعظم كتابات تلك المرحلة تجارب ساذجة لم أعن بجمعها أو الاحتفاظ بها .. ثم بدأت أكتب القصة القصيرة وأنا طالب بمدرسة الحقوق ، وبعد تخرجى .. وكنت متأثراً فى كتابتها بالأدب الروسى أكثر من تأثرى بالأدبين الانجليزى والفرنسى .. فقد وجدت فى الأدب الروسى أن كل شخص تقريبا مشغول بقضية كبرى ، هى قضية خلاص الروح ..

يخيل إلىّ أن الأدب الصادق هو الأدب الذى ، وإن سجل وعبر وحلل وكتب بأسلوب واقعى ، لايكتفى بذلك ، بل يرتفع إلى حد التبشير ، وهذا ما وجدته فى الأدب الروسى فسحرنى .

ويخيل إلى – مرة أخرى – أننا لا نستطيع أن نفهم روسيا إلا إذا فهمنا أنها تؤمن – لا أدرى لماذا ؟ – بأن لها رسالة عالمية هي تخليص البشر كافة . وقد يكون فى ذلك تفسير للدعوة العالمية للشيوعية ، كما قد يكون من الممتع حقاً مراقبة أثر التعايش السلمى الذى أصبحت تنادى به أخيرا على هذا الشعور الذاتي التغلغل فيها .

نشرت أوائل قصصى فى صحيفة « الفجر » التى كانت تصدرها المدرسة الحديثة برئاسة أحمد خيرى سعيد ، ومن بينها قصة كتبتها وأنا واقع تحت تأثير الكاتب الأمريكى إدجار آلن بو [1] ، وأخرى أبطالها من القطط والكلاب اسمها « فلة . مشمش . لولو »

وكانت « قهوة ديمترى » هى أول قصة نشرتها فى جريدة « السياسة » وقد خرجت منها بدرس فنى انتفعت به طول حياتى .

فقد وصفت فيها قهوة حقيقية موجودة فى مدينة « المحمودية ، وسجلت فيها الواقع كما هو ، وصورت العمدة بطربوشه المائل كما رأيته تماماً .. مجرد تصوير برىء لم أقصد من ورائه شيئا .. فإذا بالعمدة يغضب علىّ غضبا شديدا ويظننى أهزأ به .

حرصت فيما بعد على أن أتجنب مثل هذه المطابقة ، بعد أن

(١) وهى قصة « السخرية أو الرجل ذو الوجه الأسود » .

فهمت أن الأدب الواقعى ليس هو التصوير الفعلى ، وأصبحت الشخصيات التى أرسمها ليست منقولة عن فرد واحد ، بل عن مجموعة من الأفراد .

* * *

وأعود إلى منفلوط لأسجل الانقلاب الخطير الثانى فى حياتى .

كنت راقداً بعد العشاء على السرير بعد نهار أنهك روحى وأن له جسدى ، أقلب – ولا أقرأ – صحيفة يومية ، فإذا بنظرى يقع على إعلان لوزارة الخارجية بأنها ستعقد مسابقة تعين الفائزين فيها بوظائف أمناء المحفوظات فى القنصليات والمفوضيات .

إلقاء النظرة على الإعلان كان مجرد مصادفة .. ولكنها قلبت حياتى رأساً على عقب ، فقد تقدمت للمسابقة ، ونجحت وإن جاء اسمى فى ذيل قائمة الفائزين ، فصدر الأمر بتعيينى أميناً لمحفوظات القنصلية المصرية فى جدة باعتباره أسوأ المناصب الشاغرة وقتذاك .

ما أبلغ هذا الانقلاب فى حياتى !

فى جدة فيما بين عامى ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ حدثت فى حياتى ثلاثة أحداث هامة :

رأيت المسلمين يأتون للحج من جميع أرجاء العالم فيكونون لوحة

شاسعة كان لها أقوى الأثر فى نفسى .. وهناك درست المذهب الوهابى ومشكلات الحج والكورنتينات .. وكتبت حولها عدة مقالات فى مجلة « الرابطة الشرقية » ..

التقيت فى جدة بالعقلية الغربية المنظمة .. ممثلة فى بعض رجال السلك الدبلوماسى .. من أهمهم « سان جون فيلبى » المتشرق البريطانى الذى قام بدور هام لحساب مخابرات بلاده ، واجتاز « الربع الخالى » وألف عنه كتابا . و « فان در مولن » قنصل هولندا فى جدة ، وكان هو الآخر مستشرقا تخصص فى وضع الخرائط عن الجزيرة العربية ..

وفى تلك الآونة كان النشاط الدبلوماسى قليلا ، فرحت أقضى وقت فراغى فى مكتبة القنصلية حتى قرأتها عن آخرها .. وفيها اكتشفت تاريخ الجبرتى لأول مرة ، وفتنت به أشد الافتتان ، فلم أعرف كاتباً أو مؤرخاً استطاع أن يصور روح الشعب المصرى مثله ، ومنذ ذلك الحين وأنا شديد الاتصال الروحى بالجبرتى حتى لقد وقعت عدداً من مقالاتى الأولى باسمه : « عبد الرحمن بن حسن » .. ومن أهمها ست مقالات عن « الدعابة فى المجتمع المصرى » كان هو مصدرى فيها ، ونشرتها في جريدة « البلاغ » ، وقد أضيفت بالفعل الى كتاب « فكرة فابتسامة » .

***

نقلت من جدة إلى استامبول سنة ١٩٣٠ ، وهناك أتيح لى أن أرقب من قرب تلك التجربة الخطيرة التي قام بها مصطفى كمال حين حول دولة شرقية إسلامية إلى دولة علمانية حديثة ينفصل فيها الدين عن الدولة ، وقد قرأت عن مصطفى كمال كثيرا والتقيت به أكثر من مرة وربما أتيح لى أن أكتب عنه يوما .

وفي استامبول ارتديت القبعة لأول مرة ، وتعلمت أن للقبعات علما وأصولا ، وأن مايصلح للنهار أوالرحلات لايصلح للمساء أو السهرة ، وأن لكل زى القبعة التى تتناسب معه واضطررت – بحكم الوظيفة – إلى شـراء سـتة أنواع مختلفة من القبعات بالاضافة إلى الطربوش .

وبذهابى إلى تركيا ، عدت إلى الأرض التى هاجر منها جدى وعثرت هناك على أقرباء لنا سكنت عندهم ، كما تعلمت التركية على كبر وأتقنتها .. فلم تكن اللغة التركية تستخدم فى بيتنا إلا للسباب في لحظات الغضب .. كل ماتعلمته منها فى مصر لايزيد على كلمات مثل : أدب سيس ، خرسيس ، سكتر بره ..

وحاولت الاتصال بأدباء تركيا ، وأسعدنى الحظ بمقابلة الشاعر عبد الحق حامد – شكسبير تركيا – فى أخريات أيامه والشاعر يحيى كمال ، ولكنى لم أعثر على الشاعر محمد عاكف وعلمت أنه فر من تركيا بعد الحركة الكمالية ، وأقام فى مصر زمنا .

وبعد أربع سنوات حافلة قضيتها فى تركيا نقلت إلى روما ، فانتقلت من دكتاتورية أتاتورك إلى فاشستية موسولينى ، وكما تعلمت التركية تعلمت الإيطالية ، وأقبلت على الأدب الإيطالى أغترف منه ، وقرأت مسرحية موسولينى الوحيدة « مائة يوم » وكتابا آخر ألفه بعنوان « أخى أرنالدو » وعلمت أنه كان يكتب خطبه وبياناته الرسمية بنفسه ، فكانت قطعا من الأدب الحار الملتهب .

فى تلك السنوات بدأ اتصالى المباشر بالحضارة الأوربية ، وأخذت موقف التلميذ فى الموسيقى والتصوير والمعارض والمتاحف والمسارح ، وإذا كانت الثقافة فى روما وحركة التجديد والنشاط والابتكار لاتبلغ الذروة التى بلغتها فى باريس ، فقد كانت تناسب شخصا مبتدئا ، مثلى ، معالمها واضحة ملموسة ، وضجتها محدودة وحياة الليل فيها لم تكن صارخة كما يقول الآن فوجدت نفسى غارقا فى عصر النهضة الذى نقل أوربا كلها من الظلام إلى النور كل بضاعتى فى الموسيقى والتصوير وبقية الفنون ، الفضل فيها أرده إلى السنوات الخمس التى قضيتها فى روما .

ورغم ذلك فقد كنت أشعر دائما أن فى داخلى شيئاً صلبا لايذوب بسهولة فى تيار حضارة الغرب ، وقد وضحت ذلك مرة فى مقال قارنت فيه بين الأثر الذى تتركه روما فى القادمين إليها من الشمال والنازحين إليها من الجنوب ، ولاحظت أن أهل الشمال

ينبهرون بشمسها وحضارة عصر النهضة ، أما أنا فقد وصلتها وعندى قدر أكبر من اللازم من الشمس .. وعندى حضارة .. إن لم تفق فهى تماثل حضارتها ، وعندى دين هو نظام متكامل فيه الغناء.

عشت فى روما مع أطماع موسوليني وبهلوانيته وزرت ألمانيا وسمعت هتلر ورأيته هو وأعوانه وهم يؤججون الحركة النازية بالشعارات الضخمة ومشية الأوزة .

وطوال تلك السنوات لم أنقطع عن التفكير فى بلادى وأهلها كنت دائم الحنين إلى تلك الجموع الغفيرة من الغلابة والمساكين الذين يعيشون برزق يوم بيوم . وحين عدت إلى مصر سنة ١٩٣٩ شعرت بجميع الأحاسيس التى عبرت عنها فى « قنديل أم هاشم » إن بطل القصة شاب يريد أن يهز الشعب المصرى هزا عنيفا ويقول له :

« اصح .. تحرك ، فقد تحرك الجماد ! .. »

إنها قصة غريبة جداً كتبتها فى حجرة صغيرة كنت أستأجرها فى حى عابدين ، وعشت فيها لوثة عاطفية مثيرة عبرت عنها فى أناشيد « بينى وبينك » التي تجدها فى نهاية هذا الكتاب .

واسم إسماعيل ، بطل « قنديل أم هاشم » أخذته من اسم

صديق لي يدعى إسماعيل كامل ، كان آخر منصب شغله هو سفير مصر في الهند ، فقد كان يمثل في نظرى محاولة المزاوجة بين الشرق والغرب .

إن اسمي لايكاد يذكر إلا ويذكر معه « قنديل أم هاشم » كأنى لم أكتب غيرها .. وكنت أحيانا أضيق بذلك ولكن كثيرين حدثونى عنها واعترفوا بعمق تأثيرها في نفوسهم .. منهم أديب يمنى قال لي لقد أحسست أنك تصفنى حين أعود من القاهرة إلى اليمن .. وقال لي بائع كتب قديمة : مش القصة اللى فيها واد بياكل بفتيك في أوربا وأهله بياكلوا طعمية في مصر !!

وحين أحاول البحث عن سبب قوة تأثير « قنديل أم هاشم » لا أجد ما أقوله سوى أنها خرجت من قلبى مباشرة كالرصاصة وربما لهذا السبب استقرت في قلوب القراء بنفس الطريقة ..

***

تقلبت في وظائف وزارة الخارجية ، وشغلت فترة وظيفة مدير مكتب الوزير ، وكانت الشفرة السرية للوزارة في درج مكتبى ، وعملت مع النحاس والنقراشي وابراهيم دسوقى أباظة وابراهيم عبد الهادى وأحمد محمد خشبة ..

وفي سنة ١٩٤٢ وجدتنى أشغل وظيفة مرموقة وقد بلغت السابعة والثلاثين من عمرى ومازلت أعزب ، فتزوجت كريمة عبد اللطيف سعودى المحامى وعضو مجلس النواب عن الفيوم ..

ولم تدم سعادتي معها أكثر من ثلاثة أشهر ، أصيبت بعدها بمرض خطير مؤلم سحب النور من عينيها ، وسرعان ماتوفيت بعد أن أنجبت لي وحيدتي « نهى » . وتركت في نفسي حسرة لاتنقضي . وأثناء عملي بديوان وزارة الخارجية توثقت صلتي بالمحقق للبحاثة الأستاذ محمود شاكر ، وقرأت معه عددا من أمهات كتب الأدب العربي القديم ودواوين شعره .. ومنذ ذلك الحين وأنا شديد الاهتمام باللغة العربية وأسرارها ، وفي إعتقادي أنها لغة عبقرية في قدرتها على الاختصار الشديد مع الإيحاء القوي ..

ولست أخجل من القول بأني منذ أمسكت بالقلم وأنا ممتليء ثورة على الأساليب الزخرفية ، متحمس أشد التحمس لاصطناع أسلوب جديد أسميه الأسلوب العلمي الذي يهيم بالدقة والعمق والصدق .. ولقد أرضى أن تغفل جميع قصصي وكتاباتي ولكني سأحزن أشد الحزن إذا لم يلتفت أحد إلى دعوتي لتحديد اللغوي في محاضرتي « حاجتنا إلى أسلوب جديد »[1] وفي كثير من كتاباتي الأخرى .. والأسلوب الذي أطالب به هو أسلوب علمي يتميز بطلب الحتمية والدقة والوضوح ، لأن اللفظ عندي هو وعاء الفكر ، ولا وضوح لفكر إلا بهذا الأسلوب العلمي الدقيق .

(١) أرجو أن تراجع نصها في كتابي « خطوات في النقد » .

ومفهوم الحتمية .. حتمية اللفظ – هو أن يختار كل لفظ بدقة ليؤدى معنى معيناً بحيث لايمكنك أن تحذفه أو تضيف إليه لفظا آخر أو تكتب لفظا بدلا من آخر .. ولذلك قد أكتب الجملة الواحدة ثلاثين أو أربعين مرة حتى أصل إلى اللفظ المناسب الذى يتطلبه المعنى ..

وأهمية هذه الدعوة ترجع إلى أنها تعود الذهن على عدم استعمال الفاظ عاتمة ، معانيها غير محددة ، وموضوعة فى مكانها بلاسبب واضح .. فمثل هذه الألفاظ لا تخل بالمعنى فقط ، بل تشل قدرة الذهن على التفكير الناضج المحدد .. ولذلك أضيق أشد الضيق باستهانة الكتّاب باللفظ واستخدامهم كلمات بلا معنى ..

ولكنى أشترط مع ذلك كله ألا يبدو على الكلام أثر من عرق الكاتب وجهده ، بل لابد أن يختفى هذا كله حتى ليبدو الأسلوب شديد البساطة .. عليك إذا عزفت على العود ألا تسمع الناس خبطة الريشة ، وإذا كتبت ألا تسمع القارىء صرير القلم ..

***

ونقلت سنة ١٩٤٩ سكرتيرا أول للسفارة المصرية فى باريس إن روما بالنسبة لباريس أشبه بمسرح صغير بالقياس إلى محيط هائل بلاقرار ..

وكان أهم ماشعرت به في باريس ، وأعظم ماعشته فيها هو ذلك الإحساس الغامر بطعم الحرية ، ولم أكن ذقتها بهذا الشكل لا فى القاهرة ولا فى جدة ولا فى تركيا ، ولاحتي فى روما .. فى باريس كل إنسان حر والحكومة هناك لا تشعر بها إلا فى شخص رجل المرور فقط لاغير ..

وعلى درب الفن التقيت بزوجتى الثانية ، جان ميرى جيهو لفتت لوحاتها وتماثيلها نظرى ، ومن خلال المناقشات الفنية تولد الود ، فالحب الذى نضج على نار هادئة . وتزوجنا سنة ١٩٥٤ ومن أجلها تركت السلك الدبلوماسى لأعمل فى وزارة التجارة والصناعة مديرا لمصلحة التجارة الداخلية .

وقبل ذلك عملت مستشارا لسفارتنا فى أنقرة سنة ١٩٥٢ وبقيت فيها عامين رقيت بعدهما وزيراً مفوضا لمصر فى ليبيا ..

وفى سنة ١٩٥٥ أنشئت مصلحة الفنون بوزارة الإرشاد القومى ، فكنت أول وآخر مدير لها ، إذ ألغيت سنة ١٩٥٨ فنقلت مستشارا لدارالكتب ، حيث أتيح لى أن أفرغ لقراءاتى وأبحاثى سبعة أشهر قدمت بعدها استقالتى من الحكومة .

وخلال السنوات الثلاث التى عملت فيها في مصلحة الفنون عاصرت وشاركت ونفذت الخطوط العريضة للنهضة الفنية في مصر إبتداء من إنشاء المعاهد الفنية ومسرح العرائس ، وأوركسترا القاهرة السيمفونى وكورال الأوبرا .. حتى إنشاء فرقة « ياليل

ياعين » و« ندوة الفيلم المختار » التى تخرج فيها عدد غير قليل من شباب مخرجى السينما المصرية ونقادها ..

وفى إبريل سنة ١٩٦٢ عينت رئيسا لتحرير مجلة « المجلة » وظللت أتولى مسئوليتها حتى ديسمبر ١٩٧٠ وطول تلك السنوات حاولت أن أحافظ للمجلة عل شعارها الذى اتخذته لنفسها منذ انشائها ، وهو « سجل الثقافة الرفيعة » ، فسعيت ما وسعنى السعى لوصلها بالجامعات المصرية بنشر أبحاث أساتذتها النابهين كما حاولت ربطها قدر الامكان بمشاكل المجتمع الواقعية ، وما من بحث قيم بعيد عن النغمة الخطابية والدعائية والتبسيط إلا نشرته فيها ، بل وسعيت إليه وطلبته .

لم أتصور وظيفة رئيس التحرير علي أن الدولة سلمته مجلة ليتبحبح فيها على هواه ، ويطلع على القراء على كل عدد بمقال له أو عنه ، بل إن واجبه يفرض عليه أن ينشر فى المجلة أحسن ما يصله من بين ما يصله مقالته هو ، فإذا وجد فيما يصله ماهو أفضل منها لم ينشرها .

يبدو أن زحمة العيش وتشابك المصالح كانا يحولان بين العناصر العلمية والأدبية الممتازة وبين التنبه إلى دورها فى احتضان « المجلة » وتبنى رسالتها . وما لم تشعر العناصر بمسئوليتها عن أمثال هذه المجلات الثقافية الجادة ، فسنظل ننضج فى بئر غير فياضة .

ورغم ذلك فقد نجحت فى تحويل مقر « المجلة » إلي ندوة متصلة لاتكاد تنفض ، يشارك فيها عدد كبير من شباب الأدباء والباحثين احتضنت «المجلة » إنتاجهم ، وكان لها شرف تقديم الكثيرين منهم إلى القراء لأول مرة .

هل يهمك أن تعلم بعد ذلك أنى نلت جائزة الدولة التقديرية فى الآداب سنة ١٩٦٩ ، وأنى أتشرف بعضوية المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ؟!

***

وأعود لوصل ما انقطع من الحديث عن كتاباتى .. لقد عالجت معظم فنون القول من قصة قصيرة ، ورواية ونقد ودراسة أدبية وسيرة أدبية ومقال أدبى ، وترجمت عددا من القصص والمسرحيات ولكن تظل القصة القصيرة هى هواى الأول ، لأن الحديث فيها عندى يقوم على تجارب ذاتية ، أو مشاهدة مباشرة ، وعنصر الخيال فيها قليل جدا ، دوره يكاد يكون مقصوراً على ربط الأحداث ولايتسرب إلى اللب أبدا ..

وأهم الأفكار التى ألححت عليها فى قصصى هى :

أولا : الإعلاء من شأن الإرادة وجعلها أساسا لجميع الفضائل فالعالم فى نظرى معركة كبيرة ، والسلاح الأول الذى يستخدمه

الإنسان في خوضها هو الإرادة .. وما أكثر ما وصفت شخصية رجل طـــيب ولكنه ضعيف ، فتكون النتيجة الحتمية أنه يجزر جزرا .. وهذا واضــح في قصــص مثــل « نهـاية الشيخ مصـــطفى » (نـــشرتها في جريدة « السـياسة » ســـنة ١٩٢٧) و« أم العواجز » « والسلحفاة تطير [1] » ..

ثانيا : الشغف بالدراسات والتحليلات النفسية وكانت لي قراءات مستفيضة في علم النفس وتراجم كبار الفنانين المصابين بتمزقات روحية ونفسية وتأثرت بآراء فرويد وآدلر .. ومن القصص التي يتضح فيها هذا الشـــغف « الفراش الشاغر » و« ســوسو » (مجموعة « عنتر وجولييت ») و« مرآة بغير زجاج » (مجموعة أم العواجز) وأشير فيها إلى أن كلا منا خزانة مغلقة لايعرفها أحد ؛ وأن سر الحياة في المقدرة على الجذب ، وفيها تعبير غريب جدا في كلمات قليلة « وعجز يدى عن الامتلاك » ، إنه أصدق وصف لأشخاص تضيع منهم محافظهم وأموالهم .. وزوجاتهم ، لافتقارهم القدرة الإيجابية على الجذب .

ثالثا : التنبه لمفارقات الحياة ، وأول هذه المفارقات جبروت الإنسان وضعفه في وقت واحد . ومن هنا تنشأ نغمة السخرية التي تسرى في كثير من قصصي .

رابعا : الاهتمام بوصف الحيوان ، ومن أمثلة ذلك قصة « فلة .

---

(١) القصة الثانية في هذا الكتاب .

مشمش . لولو » ، « عنتر وجولييت » ، ووصف الحمار في « خليها على الله » ، والجمل ، والبقرة والماعز في « صح النوم » .

خامسا : في المرحلة الأولى انشغلت بالجنس ، فصورت الغريزة الجنسية كقوة واعية له إرادتها المستقلة التي تنفذها من خلال البشر غير مهتمة بقوانينهم أو أعرافهم . وفي قصة « احتجاج » (مجموعة « أم العواجز ») صورت سيطرة هذه الغريزة على بيت ، لذلك تعمدت أن أكثر فيها من المصطلحات الفسيولوجية : قيء الحامل ليلة الدخلة ، غسيل الفوط الصغيرة المبقعة ، رائحة العرق .

ومنذ اشتغلت بكتابة القصة القصيرة ، وأنا أحاول دائما العثور على أشكال فنية جديدة . ولعلي في قصة « البوسطجي » (مجموعة « دماء وطين ») كنت أول من استخدم « الفلاش باك » أي البدء بالاحداث المتأخرة في القصة لقد كتبت هذه القصة في استامبول ومازلت أذكر تلك الليلة التي كتب فيها وصف ليل الصعيد ، وكيف شعرت برجفة شديدة ، وأنا أكتبه .. ولقد سرني أن سمعت من بعض من قرءوا القصة أنهم أحسوا هذا الجزء بنفس الرجفة (١) ..

(١) « ليل في ظلمة العمى .. تلفح به الكون مرغما هبط على الفضاء حملا ثقيلا ، أحاط بالأرض كالقيد ، غطى الحقول كالكفن ، ولف القرى كالضماد . وانحدر – ولا حد لأتساعه – إلى الشقوق فاحتواها ، ثم تلفت يبحث عن مداخل النفوس التي يعلم أنها تستقبله وتتشربه فاحتلهايتمطى فيها هو الآن في كل زورة لكوم النحل يتسلل كاللص إلى قلب عباس ، على غفلة منه .. »

وفي قصة « السلحفاة تطير » استخدمت الشكل الدائرى ، فانتهت القصة حيث بدأت .

وقد تكون رواية « صح النوم » أحب أعمالى القصصية إلى نفسى لأنها تطبيق صارم للمبدأ الذى أنادى به فى ضرورة التزام الدقة والعمق فى أسلوب الكتابة ، فليس فيها لفظ واحد لم يكن موضع جس ووزن ، وفيها صفحات كاملة لا يتكرر فيها لفظ واحد . والمسألة ليست صنعة بقدر ما هى ثراء فى المعانى والأحاسيس التى تتطلب ألفاظا لاتتكرر . ومن الأجزاء التى أعتقد أنه حالفنى التوفيق فيها منولوج التربى الذى يناجى الطبيعة ، فالإنسان لايلتحم مع الطبيعة التحاما كاملا إلا عند الموت . والتربى فى الرواية هو صاحب الحان الذى لا يستطيع أن يرى الناس إلا على حقيقتهم وهم سكارى ، فلما أغلقوا له الحان لم يجد أمامه سوى الموتى ليرى فيهم الإنسان على حقيقته .

وإلى جوار القصة ، والمقال الأدبى ، لا الصحفى ، أسهمت بقدر لابأس به فى النقد والدراسات الأدبية ، فكتبت تاريخ « فجر القصة المصرية » بأسلوب درامى يجمع بين الحقائق العلمية والتشويق القصصى ، واهتممت فيه بإبراز المفارقات التى تثير السخرية كقولى عن الدكتور محمد حسين هيكل حينما نشر روايته : « زينب » بتوقيع « مصرى فلاح » : إني « لم أر رجلا مثله يتنكر حين يتشرف » .

ويدل كتابى « خطوات فى النقد » على اتصالى منذ وقت مبكر بالحركة الأدبية فى مصر رغم بعدى المادى عنها ، ففيه مقالات عن ديوان رامى « ومصر ع كليوباترا » لشوقى « وأهل الكهف » لتوفيق الحكيم .

وأعــرف أنــى متهم بأنى ناقد تأثرى ، ولكنى فــى مقــالى عن « مصرع كليوباترا » مثلا تحدثت عن أدق تفصيلات المسرحية فلم أترك حتى الشخصيات الثانوية . وفى مقالى عن « عودة الروح » لتوفيق الحكيم لعلى كنت أول كاتب مصرى يثير قضية الفن للفن والفن للحياة ، وقد أخذت علي الرواية أن الذى يدافع عن مصر فيها رجل فرنسى !

وفى مقالى عن « المستحيل » لمصطفى محمود تحدثت عن كيفية نشوء الفكرة لدى الكاتب ، ثم كيف يخرجها على الورق ، كما قدمت تفسيرا اجتماعيا لشخصية كشكش بك يتضح منه مدى حبى لمصر وإشفاقى عليها .

وأزعم أنى أسهمت فى تطوير الكتابة الفكاهية ، خير ما يمثلها كتابى « فكرة فابتسامة » فالفكاهة فيه تقوم على المفارقات العقلية ودقة الملاحظة لسلوك الناس ، ومن مقالاته القريبة إلى قلبى « خرج ولم يعد » و « الحكاية ومافيها » و « سبعة فى قارب » الذى قدمت فيه تفسيرا لكل النوازع الفنية .

ومما أعتز به صداقاتي العديدة بالأدباء الشبان واحتفائى بكتاباتهم على اختلاف مذاهبها ، فالحنو على الجيل الصاعد ليس

مسألة عاطفية فى نظرى فالفنان الصادق هو الذى يشعر أن المعبد أو الهيكل الذى يعيش فيه يجب أن يستمر وأن سلمه جيل إلى آخر ، هناك بالطبع لذة الأب وهو يرى ابنه يتقدم ، ولكن اللذة الأساسية هى المتصلة بوجود الفن واستمراره .

لعل ذلك يفسر كثرة المقدمات التى كتبتها لقصص الأدباء الشبان ، وقد سمعت من يقول إننى جاملتهم ، والواقع أننى لم أكذب فى أى مقدمة كتبتها بل قلت الحقيقة بأسلوب رقيق ، ولكنى أغضب حينما يوصف نقدى بأنه « دبلوماسى » ، لأن هذا معناه أنه نقد منافق ، وأنا سعيد بتقديم عدد كبير من الأدباء الشبان وبصفة خاصة محمد سالم والشبان الستة الذين اشتركوا فى إصدار مجموعة « عيش وملح » والتى أضيفت إلى كتاب « أنشودة للبساطة » .

وكانت لى مشاركة لابأس بها فى الترجمة ، فترجمة مسرحيتى « الطائر الأزرق » لميترلينك و« دكتور كنوك» لجول رومان وروايات : « أنتونى كروجر » لتوماس مان ، « ولاعب الشطرنج » لستيفان زفايج ، « والبلطة » لميخائيل سادوفيانو ، وسيرة اسكندر دوماس التى كتبتها إديث سوندرز بعنوان « الأب الضليل» بالإضافة إلى كتاب « القاهرة » لدزموند ستيوارت ، كما قمت بمراجعة ترجمة عدد من المسرحيات العالمية التى أصدرتها وزارة الثقافة .

أما الظاهرة الغريبة التى أحار كثيرا فى تحليلها وأنا أتأمل

حياتى وإنتاجى ، فهى أنى وإن كنت من أصل تركى قريب ، فإنى أحس بأنى شديد الاندماج بتربة مصر وأهلها ، وفى بعض الأحيان يرجنى هذا الشعور رجا عنيفا .. ومعرفتى باللغة العامية المصرية وتعبيراتها تفوق ماحصلته منها مباشرة . قد يكون ذلك راجعا إلى الفطرة والحدس والإحساس غير الواعى ، ولعل هذا الحب هو الذى يميل بى إلى استخدام بعض الكلمات العامية فى كتاباتى رغم أنى من المهووسين بالفصحى .

وأثناء إقامتى الطويلة فى أوربا كان أكثر ما أحن إليه فى مصر هو أحياؤها الشعبية القديمة التى أسمع فى أزقتها كلمات مثل « اجرانها » « يادلعدى » وأعيش تلك الروح الشعبية الحلوة الصابرة التي حاولت تصويرها فى « قنديل أم هاشم » ..

يا أخى ..

ها أنذا قد فتحت لك قلبى ، وقدمت لك ما قدرنى الله عليه من سيرتى وآرائى ، أيا كان حكمك عليه فسأتشفع عندك بمثل فرنسى معروف يقول :

« إن أجمل امرأة لا تستطيع أن تمنح إلا ما عندها – لا أكثر .. »

يحى حقى

(مايو ١٩٧٤)

كناسة الدكان

شقشقة الفجر

من فضائل رمضان أنه يتيح لعدد كبير من الصائمين أن يتذوقوا بعد السحور متعة فترة تفوتهم هم وأغلب الناس بقية العام لأنهم من حزب نوم الضحى ، فيهم من يسهر اضطرارا لأنه من الكادحين ، وفيهم من يسهر دلعا لأنه من عشاق الليل أعداء الشمس . إنها شقشقة الفجر ، ياله من جمال ، أعجب كيف يغفل كثير من الناس عنها ، ليس إلا عندها يمتلئ القلب ، بأقصى ما يقدر عليه من الاحساس بعظمة الخالق ، بروعة الكون ، بالتشوف للطهر ، بالانبهار بالجمال .

ومن العجيب أن «القرآن الكريم» منتبه لشقشقة الفجر ، متيم بجمالها ، أنه أقسم بالفجر «والفجر . وليال عشر» ، ربط بينه وبين صدق النية وصفاء الروح : «إن قرآن الفجر كان مشهودا» رسمه على لوحة مبهجة الألوان بخيط أبيض وخيط أسود ، ما أعجب رعشة هذه اللحظة من ا لزمان .

الآن لا أشهد شقشقة الفجر مرة إلا ردتنى بقوة إلى ذكريات طفولتي ، دنياى حينئذ هى دنيا المسموعات لا المرئيات ، بالليل

أسمع دقة نبوت الخفير على الأرض فلا ينفع الأمن المراد لها أن توحى به إلا فى إثارة مخاوفى من القوى الشريرة المبهمة التى تتربص بنا فى الظلام ، الجن والعفاريت والست المزيرة ، والبغلة التى تصطنع الوداعة والود وتستدرجك لتركبها . فإذا تحامقت ونسيت المواعظ علت بك درجة حتى تبلغ عنان السماء ، فأنت فى خطر أن تدوخ فتهوى إلى الأرض ويندق عنقك ، ثم يشق الصمت صوت مرعب يخفق له قلبى خفوقا مؤلما ، صوت البومة ، أم قويق ، ربيت على أنها نذير خراب وقرب هبوط ملاك الموت على الأرض ، لا يعود للسماء إلا وفى جعبته روح إنسان . أدعو الله فى سرى ألا يكون المخطوفة روحه واحداً من أهلى ، وكأننى وثقت باستجابة دعائى ، فأسأل : ترى أى الجيران سيقع عليه الدور ؟ إننى أرثى له ولأهله حتى ولو كان بعد سابع جار .

وصوت البومة من طبقتين مختلفتين بينهما فاصل ، أولا خافت يشبه الأنين يبعث فى قلبى الحزن مع الخوف ، هذا والله هو البكاء بعينه ، ثم فجأة صرخة قصيرة حادة قاسية متوحشة ، لونها فى أذنى لون الدم ، وكنت لا أعرف حينئذ أنها صرخة الانتصار حين تنقض على قنيصتها ، ولكنها كانت تجعلنى أحس احساسا عميقا مبهما بأن العالم الذى أعيش فيه يسوده قانون صارم لا يرحم : قانون الافتراس ، صراع بين القوى والضعيف ، إما آكل وإما

مأكول ، كنت أرتعب من أن أكون من المأكولين ، وإن بقيت غير واثق كل الثقة أنني سأكون من الآكلين ، كنت على غير علم منى أمتحن قدرتى ، بين الوثوق والشك . لعل هذه اللحظة من التردد صحبتنى فيما بعد طول عمرى .

وحين كبرت وقرأت الشعر الانجليزى هالنى - نعم ، أقول هالنى، فهذا أصدق وصف لحالى - أنى وجدت صوت البومة عنده غير كريه ، لا ينذر بخراب أو موت ، يسلكه بين بقية أصوات الطير الأنيسة ، ويرى فيها أحدى صلات الإنسان بأسرار الكون وجماله ، فهتاف المخلوق للخالق ، دعاء وتسبيح ، كيف يمكن اذن أن يقوم تفاهم بيننا وبين الانجليز ؟

ولكن مهلا مهلا ، كل هذه المخاوف ستزول ، سيكون لها عوض جميل ، سيأتى به الفجر . وستنقضى عنده الغمة ، سيصل إلى سمعى صوت حلو مرتين مرة لأنه بعيد ، ومرة لأنه يملأ قلبى بالفرح والخشوع معا ، إنه صوت المؤذن : الله أكبر الله أكبر حينئذ أحس بأننى فى حوزة رب قدير ورحيم معا ، صوت المؤذن هو الذى يبدد عندى الظلام والمخاوف . وها هو ذا بشير آخر بالصبح ، إنه صوت الديك . يؤذن لى هو أيضا من على سطح قريب ، كأنه يقول : اصبح يا نايم .

صدقنى ، لا أزال أذكر بوضوح صوت هذا الديك العجوز زميل

طفولتى ، صوت أجش كأن صاحبه من مدخنى الجوزة . وكم كان يطربنى الفرق بينه وبين أول أذان للديوك الصغيرة حين تبلغ أشدها وينبت طرف عرفها الأحمر ، صوت رقيق ناعم لطفل يبدأ تعلم الكلام ، ويبلغ سمعى أحيانا صوت طائر نسميه بالسقساقة ، هو بشير خير ، ينبئ عن قرب حضور ضيوف أعزاء ، أقارب أو أغراب ، هى طائر ضامر مسحوب كالسهم ، وربما بلغنى أيضا صوت طائر آخر كنت أراه يجمع بين الفكاهة والوقار ولكن دون أن اصدق فكاهته أو وقاره ، وهذه هى مأساته ، إنه صوت كأكأة الغراب .

بقى من ذرارى الليل وأصواته شبح أسود ضخم له صرخة حادة أيضا ، ما مرق مرة أمام النافذة وقد فرد جناحيه العريضين إلا فزعت ، إنها الحدأة ، خطافة الكتاكيت وبضاعة بائع جوال يحملها على رأسه وينادى فى الطرقات : «ياجابر !» .. إنه بائع لحم الرأس ، كل طائرة حديثة هى من سلالة الحدأة . وكنا نعجب لقول يردد علينا بلهجة التأكيد المؤيدة بالمشاهدة أن بالاسكندرية طلسما يحرمها على الحدأة ، فسماؤها خلو من هذا الطير الجارح. ولا أعرف إلى اليوم مبلغ الصدق فى هذا القول . وإذا لم يصدق فمن أين أتت هذه الشائعة وما سببها ؟

رويت لك ذكريات طفولتى الملفوفة فى قماط من عالم الأصوات ،

قصدت بها أيضا أن أنبه الشباب عندنا إلى هواية جميلة منتشرة فى البلاد المتحضرة ، بل يتعشقها رجال وقورون فى أعلى الدرجات من السلم الاجتماعى ، إنها تتيح لشبابنا التزود من العلم والانتباه لأسرار الخلق وجماله ، فعند أبناء كل بلد متحضر هواية دراسة طيوره ، مقيمها ومهاجرها ، معرفة طبائعها وعاداتها فى الطعام والعشق وتربية الأولاد ، فرز أصواتها وأعشاشها وبيضها ، تباين أحجامها وألوانها ، لو فعلوا لوجدوا فى هذه الهواية أكبر النفع واللذة معا ، أم تراهم – كما فعلوا فى أشياء أخرى كثيرة – يتركون ذلك للأجانب النازلين بديارنا ؟

(«التعاون» ، العدد ٢٥١ ، ١٩٦٧/١٢/١٠ ، ص ١٠)

جـــــانب الرهبـــة ..

عن طريق الأذن لا العين بدأ فى طفولتى احساسى بتلك اللحظة الجميلة الرهيبة معا : مولد الفجر وتردد أوائل أنفاسه ، فلا قيام للأسرة كلها من الفراش ، ولا فتح الشيش لأنه جرح للخلوة عندنا وعند الجيران ، ولا خروج إلى الطريق إلا والشمس قد علت قصبة ونصف على الأقل ، (هذا القياس من قبيل التحسر على أننى كنت لا أسكن الريف) .

هكذا حال أغلب الأسر التى يعولها موظف فى ديوان ، أطبقت على مسكنه جدران العاصمة ، وضمان الرزق وانتظامه ، ثرية مستكفية ترعرع فيها ميله إلى التكاسل .

وربما أيضا عن طريق الأنف ، فحتى فى الشتاء والنوافذ مغلقة بإحكام تحس هى الأخرى بطعم الفجر حين يتسرب إليها رغم السدود هواء كأنما انعدم وزنه ، رق ولطف وترطب ، تطهر وتطيب فيكاد الفم يذوق أيضا حلاوته ، إنه نشوة لا خمر ، ولكن الاعتماد كله على الأذن ، القابعة داخل أسوار الجدران المطبقة ، المنتبهة ، المفنجلة ، لواقفة على ذنبها – كما تقول العامة – من فرط اللهفة والتحفز .

وإذ غابت رؤية العين فقد انطلق الخيال واشتط فى شروده ، وتوهم كائنا ما لم يكن ، وكانت له تهاويل تقيم بدل الحقيقة حقيقة من عندها لا تقل عنها اقناعا وصدقا ، ولأن الطفولة هى فترة التملص إلى الالف والثقة والاطمئنان - ولو انصياعا أو صلحا - من قبضة الحيرة والشكوك وتتابع امتحان الأشياء والمعانى والرموز، من قبضة عالم الأسرار المجهولة ، لا حديث معه ، أخذا وعطاء إلا بلسان الخوف ، فإن الخيال هو الذى تكفل بتضخيم جانب الرهبة بخسا بجانب الجمال فى لحظة مولد الفجر وتردد أول أنفاسه ، فانفلات مكاننا فوق سطح الكرة الأرضية من بحر الظلمات إلى النور يصحبه احساس الصدور بثقل كتلتها الضخمة التى تجثم عليها ، كأنما «فوق» أصبحت «تحت» احساس بدورانها حول محورها ، هذه الرحى أى شئ تطحن غير العظام واللحم منا ، أحتم ألا تخف عن سمعنا إلا إذا كفت هى عن الدوران ؟

احساس - لفترة - بأن المدينة الكبيرة وحش مهول ، كفانا نومه بالليل شره ، ها هو ذا يهم بالصحيان ، إنه ساذج شرس معا ، ولأنه ساذج فشراسته حمقاء ، وغير مأمونة . وقد تثور لأوهى الأسباب ، ومرة أنها أرض معركة ، قطع الليل فيها القتال ، وها هو ذا يوشك أن يتجدد مع أول شعاع للشمس ، قتال بين آلاف من الجيوش ، وكل جيش قوامه فرد واحد ، مدجج بالسلاح ، يا قاتل

يا مقتول ولا ثالث للاحتمالين ، ولو فرضنا المستحيل وساد السلم فإنه هدنة بين معركتين .

ليس بالقليل جدا ولا بالكثير جدا عدد الأصوات التى تمشى بين يدى الفجر لتعلن عن مقدمه وترحب به بصوت إنسان (المؤذن) ، وصوت حيوان (صياح الديك وزقزقة الطير وتسبيحة الكروان) هى التى تتكفل بزف الجمال فى مولد الفجر إلى أذنى ، أما جانب الرهبة فكان يتكفل بها – ولا عجب – صوت للحديد ، صوت احتكاك عجلات بقضيب ، كانت أذنى تبعد بالنهار كثيرا وبالليل قليلا عن مهبط مسجد السلطان حسن ، حين يبلغه الترام القادم من شارع محمد على يستدير إلى اليمين بقوة الزاوية القائمة ليعيد من ورائه المسجد إلى ميدان القلعة ، فيكون لاحتكاك العجلات بالقضيب عند الاستعادة صوت حاد ، لا أسمعه بالنهار ولكنه يطعن أذنى مع أول ترام يولد مع الفجر ، فتكاد تجز له أسنانى – صرير معدنى ، حاد فج ، سمج ، بلا حياء ، قاس ، كأنه شحذ سكين للذبح ، هذا ولا ريب أول صليل السيوف ، وقد بدأت المعركة ، وعجل الترام هو اختصار للرحى التى تطحن منا اللحم والعظم .

حينئذ يتغلب فى قلبى صوت على صوت ، الصوت المغلوب كان يهمس لى : لا تخف ، إن الله رازقك كما يرزق الطير ، تمضى خماصا وتعود بطانا لأنها مؤمنة متكلة على ربها ، خالقها ، إنه بها

رحيم ، والصوت الغالب يفرخ لى : ليس فى يدك ضمان ، فلا اتكال لك إذن إلا على نفسك وسعيك ، وإلا لسقطت على الأرض وداستك الأقدام ومضغت الأنياب قبل سيرتك لحمك .

ولكن ما يكاد صوت المؤذن يصل إلى سمعى من بعيد حتى ينعكس الحال فيصبح الغالب مغلوبا والمغلوب غالبا .

(«التعاون» ، العدد ٢٥٥ ، ١٩٦٩/١٢/٧ ، ص ١٠)

طائر الرهبة ..

عن طريق الأذن لا العين يتولد احساس الطفولة بأن عالم المرئيات ملفوف بعالم آخر خفى ، لا تفض أسراره .. مخيف ، مخلوقاته لا نراها رأى العين بل تمثل فى تصورنا بالسماع عنها ، الغول . أبو رجل مسلوخة . الست المزيرة . بغلة العشرى . الجن . العفاريت . الأخت المقيمة تحت الأرض . كذلك كان لقاؤنا برهبة الموت وامتناع سره عن الفهم . لا تتحرك شعرة فى رءوسنا لرؤية الجنازات أو سرادق المآتم . أو لطم الخدود ، هذا شئ مزعج ولكنه غير مخيف ، لقد تكفل صوت مميز - لا نسمعه إلا ليلا - بأن ينقل إلينا الاحساس برهبة الموت ولغزه فى عنف شديد .

ها أنذا راقد فى الفراش فى حضن أمى ، أنعم بلذة الشعور بالانتماء ، بالحنان ، بالطمأنينة ، بدوام الدائم ، الدنيا والعمر ، ربما بين اليقظة والمنام . وفجأة ، تتحفز أعصابى وكل قدراتى على الانتباه والانصات . كل ذخيرتى من التوجس . حين يصل أذنى وسط السكون صوت خافت ، مديد إلى قدر ، متكرر على مهل .. لا أدرى كيف أصفه : أنين قلب مسكين ؟ فحيح حشرة من الزواحف، زومان متآمر يتلمظ بشهوة الانتقام ، تلاوة ورد من متعبد ؟

من أجل هذا كان من المستحيل أن أحكم هل هو حلو أم بغيض، ولكن لى به خبرة سابقة ، فلا أعرف صوتا يدانيه فى القدرة على بث الرهبة والخوف فى قلبى لأنه هو الذى يؤذن بما سيتبعه من صرخة حادة عنيفة تشق الهواء فتنبئ أن المخالب قد شقت أيضا صدر ضحية ، صرخة وحش مفترس قاس ، أتصوره حينئذ وقد تقلصت شفتاه وكشر عن أسنانه ، لمعت عيناه ببريق النصر ، بلذة غمد السيف فى قلب العدو ، إنه قتل بانقضاض مفاجئ ، وعلى حين غرة من الضحية ، ولا يفوت أذنى أن تلقط من حشايا هذه الصرخة صوت وصوصة خافتة ، ضئيلة العمر ، كنت أول الأمر لا أتبين سرها ، ثم أدركت بالتجربة والتكرار أنها آخر أنفاس الضحية بين المخالب المخضبة بالدماء .

تهب أمى فزعة من رقادها . تستعيذ بالله . تناشد الشر أن يبقى «برة» وبعيدا ، وتسأل فى توجس شديد : ترى على من وقعت قرعة الموت التى تنبئ عنها هذه الصرخة ؟ فى بيتنا ؟ لا . لا . عسى أن يكون على أحد بيوت الجيران ، لا القريبة ، بل البعيدة .

هذه هى صرخة البومة ، التى كانت أول من حدثنى عن الموت ورهبته ولغزه . وحتى لو لم تكن البـومة نذير الموت فهى نذير خراب : كان الحى الذى سكنته - وربما البلد كله - مهددا باعصار كاسح ، سيخلع السقوف ويقوض الجدران ، وتصبح البيوت خاوية

على عرشها ، وستجر العاصفة وراءها أكداسا من الرمال تنحط وتتعالى حتى تبلغ أعلى الشواهق . لا يبقى فى اللوحة إلا لون واحد هو اللون الأصفر .

لم أرهب عزرائيل رهبتى لصوت البومة ، ورغم دوام المدافعة على طول العمر المديد لم أشف إلى اليوم من هذه الرهبة تمام الشفاء .. ولكن صبرا ، صبرا .. إن هذه الرهبة لن تلبث حتى يبددها صوت آخر .. صوت جميل هذه المرة .

(« التعاون » ، العدد ٣٥٦ ، ١٩٦٩/١٢/١٤ ، ص ١٩، ١٠)

رسائل من عالم مجهول ..

أرادوا لى وأنا طفل أن أؤمن كما آمنوا فآمنت بأن هذا الطائر الذى نسميه بالسقساقة (ولا أعرف حقيقة اسمه إلى اليوم) إذا زقزق وهو يرف بجناحين من وراء نافذتنا فمعنى هذا أنه يحمل إلينا رسالة تقول أن ضيفا سيقدم إلينا على غير إنتظار منا ، سيدق الباب فاذا صحنا : « من ؟ » رد علينا انسان لا نتوقعه ولاتقول رسالة السقساقة هل سنسر لمقدمه أم لا نسر ، هذه مسائل غير داخلة فى اختصاصها . لعل تصرفات البشر تبدو للسقساقة فى غاية من البلاهة أو اللؤم ، فتزدريها ولا تشغل نفسها به .

وإن كأكأة الغراب (الطائر الوحيد الذى يخيل اليك من حركة رقبته إذا صاح أنه يتقيأ) تنبئ بالفراق وتشتت الأسرة ، وأن نعيق البوم بالليل نذير بأن ملك الموت عزرائيل يحوم حول الحى كله ليخطف روحا انتهى أجلها ، كنت أدعو الله من كل قلبى أن يتخطى منزلنا ويمضى حيث شاء ، ثم أشعر بخجل لأننى بعت جميع الجيران - غدرا - بيع السماح ، مع أن النبى أوصى على سابع جار ، إلى اليوم ينقبض قلبى لنعيق البوم . ولكنى لما كبرت دهشت أشد الدهشة أن وجدت نعيق البوم موصوفا فى الشعر الأوروبى بأنه هتاف رقيق ، حقا هؤلاء الأقوام من جنس غير جنسنا .

آمنت أيضا أن الشـبشب إذا انقلب رأسا على كعب فمعنى هذا أن أحد أفراد الأسرة سـيخرج إلى سـفر ، وأن « البورص » إذا تسلق أحد جدران المنزل ولبد عليه وأطلق صوتا كأنه حس المكارى لحماره فلابد لى أن أصيح فى وجهه : « صاحب البيت اسمه محمد » وقاية لشره ، بشفاعة الرسول ، لأنه إذا مس الملح وأكلنا من طعام خالطه هذا الملح فلابد أن تصـاب يدنا بمرض البهـاق ، فتغطي جـلدها بقعة مشرذمة الحوافى من لون أبيض كالح ، واللون الأبيض لا يصـبح دميما إلا بجريرة هذا المرض وحده ، يهوى أحيانا قبقاب متيم بالقسوة وحب الأذى ، عاق لأمى وعاص لنصـحها بترك هذا الضـيف يمضى لحال سـبيله ، فينقطع الذيل ، ويظل هذا الذيل المقطوع يتحـرك ويتلـوى أمامى (وبقية الجسد - يا للغـرابة - خامد) وأنا أتأمـل الذيل بدهشـة لا حـد لها ، هذا أول شـذوذ يخرق قاعدة ربيت عليهـا - بأن الحركة هى الفرق بين الموت والحياة ، هل هذا الذيل حى ؟ هل هو ميت ؟ هذا سـؤالى الـذى لا يهـدينى أحد إلى جـوابه ، هـل بعض الحيـوان يكمن روحه فى ذيله ؟ ربما هكذا كنت أقول لأخرج من حيرتى .

وآمنت بالجن ، والعفاريت ، والست المزيرة ، وبغلة العشرى - تقابلك فى ليلة مقمرة (هذا هو الشرط) وتغريك بركوبها فإذا فعلت

علت بك حتى تبلغ السماء ثم تلقيك عنها فتهوى وتلقى مصرعك ، وآمنت كذلك أن لى أختا تسكن الأرض (كم تمنيت أن أراها رأى العين .. هذه الأخت العزيزة) وأن بعض الرجال متزوجون من نساء من الجن ، وبعضهم من حوريات البحر ، الزوجة نصفها الأسفل سمكة ،ونصفها الأعلى امرأة ، فلها ثديان كنساء البشر .

وكنت قبل أن أنام أحلم فى بعض الليالى – وفى لذة كبيرة – بأن امرأة من الجن خطفتنى وأنزلتنى قصرا وردى اللون فى كهف سحيق ، قصر مسحور ، ففيه سكينة متخلفة من ألف صرخة موءودة ، ونسيم عليل انطلق كالروح الرضية بعد آخر شهقة من لهاليب من النار كانت تتواثب كأنها فى رقصة باليه ، زوجتى تتقد عيناها كالخمر وهى تقبلنى ، ولكنهما تشعان باشتياق وحب واعزاز لا تقدر عليها امرأة من البشر ، وهى شديدة الغيرة علىّ ، تأخذ منى المواثيق ألا أفشى سرها إذا عدت إلى سطح الأرض ، وأن أظل وفيا لها ، فلا أخونها مع امرأة ولو كانت بين الناس هى ست الحسن والجمال ، أما عقاب الخيانة فزلزلة فى عقلى فألتاث ، فلا أنا عاقل ولا أنا مجنون ، أو أحلم بأن حورية من البحر قد قادتنى إلى قصر أزرق اللون فى قاع المحيط ، كأن جدرانه من البللور ، جمد فيه من البرد كل شعور ، حتى الشعور بالبرد .. زوجتى النارية تكلمنى ، أما زوجتى المائية فخرساء ، ربما من خجل لأنها

لم تف لى بكل عهود الأنثى ، لأن نصفها الأسفل سمكة ، من أجل هذا زاد حدبها علىّ ، لا تدرى أى أطـايب طعـام البحر تقدمه لى ، أما زوجتى النارية فلا تسأل عن طعامى وشرابى ، حقا أنها أمرأة يدل عليها خلقها الشرانى وهيهات أن تتنبأ بخطواتها التالية .. وكنت أقول عن حورية البحر ، خرساء خرساء ، لا بأس ، فإن أكبر لذة عند العشاق هو التخاطب بالعيون .

آمنت بهذا كله ، لا تقليدا فحسب ، بل بلذة وطرب شديدين ، أننى لا أنفى عليهم حشو دماغى بهذه السخافات كلها ، بل أشكرهم كل الشكر عليها ، كم كانت طفولتى بدونها تبدو لى تافهة مملة سقيمة ، محدودة العقل بليدة الحس ضيقة الأفق . فبفضل هذا التلقين وجدتنى أدفع دفعا وأنا فى سن مبكرة إلى الأنتباه إلى أن عالمنا محوط بأسرار كثيرة لا نعرفها ، وأن وراء الصورة التى تتراءى لحواسنا صورة أخرى نجهلها فلم ينقطع لى منذ ذلك الوقت تساؤل عن أسرار الحياة والكون والعجب لها ، والعجب هو علامة يقظة العقل والروح ، انه نشوة لا تماثلها نشوة أخرى ، ولما كبرت وقرأت أن بعض علماء الفلك يقولون أن عالمنا هذا هو صورة معكوسة (كأنما فى مرآة) لعالم آخر بدت على فمى ابتسامة رضا وعاد لى جو طفولتى بكل براءته وحيرته وتعجبه .

(« التعاون » ، العدد ٢٨٨ ، ٢٥/ ٨/ ١٩٦٨ ، ص ٩، ١٠)

يمـــين وشـــمال ..

ربيت أيضا في طفولتي على الايمان بأن اليمين رمز للخير والشمال رمز للشر ، وإلى اليوم لابد لي أن أدفع بقدمي اليمنى قبل اليسرى إذا لبست البنطلون أو الحذاء أو إذا خرجت من البيت أو دخلت مكانا أرجو فيه خيرا لي ، استبشر باليمين وأتطير بالشمال ، واليمن مشتق من اليمين ، واليمن هو الخير والبركة والقوة .. والشمال في القاموس هو الشؤم .. وليس للكلمتين مصدر واحد كما في اليمن واليمين .. أو قل ربما دل وجود حرفي الشين والميم في الكلمتين على وجود مصدر قديم ضاع ، هو الأصل في اشتقاقهما .

وواضح أن التفاؤل باليمين ترتب عليه التشاؤم بالضد وهو الشمال وهذا من سوء حظ كلمة الشمال وكل ماتمثله .. وأعتقد - وإن لم تكن تحت يدي مراجع - أن هذا التفريق بدأ حين أدرك الإنسان لأول مرة معنى الطهارة والنجاسة ، حكم بأن هناك أشياء طاهرة - كالماء - وأشياء نجسة كجثة الميت ، فخصص يده اليمنى لتناول الأشاء الطاهرة ويده اليسرى للمس الأشياء النجسة ، وبدأ يتبارك بيده اليمنى وأخذ يعمل بها أكثر من عمله بيده اليسرى ،

هذا تعليل لايشفى الغليل لأن السؤال لا يزال قائماً : لماذا أختار اليمين مثلا - دون اليسار - للطهارة والعمل ؟ . هذا الإنسان البدائى العبقرى الذى عرف كيف يأتى بالمعجزات : الزراعة - استئناس الحيوان - اشعال النار - التعبير عن نفسه - الرسم على جدران الكهوف - لاتزال حياته محاطة بالغموض .

ومما ساعد على هذه التفرقة بين العضو اليمين والعضو الشمال أن ظاهر جسد الإنسان مقام على قانون الثنائية وتطابق الجزئين مع تعاكسهما ، كأنه باب من ضلفتين متماثلتين متعاكستين ينشق من منطقة على خط يخرج من وسط الجبهة إلى سن عظمة الأنف ، ويمتد إلى الصرة حتى العصعوصة فى نهاية العمود الفقرى ، وبقيت الساقان متدليتين ولكنهما خاضعتان للقانون ذاته .. فكل ما تجده على يمين هذا الخط تجده معكوسا على يساره ، كأنه صورته فى المرآة . وأحب أن أذكرك هنا بما فعله الفنان الفرعونى حينما رسم جسد الإنسان على الجدران .. رسم الرأس منظورة إليها من جانب (بروفيل) ونظر إلى الجسد منظورا اليه من أمام . فلما جاء لرسم القدمين جعلهما فى صورة واحدة .. كلاهما قدم شمال .. أى الابهام هو آخر أصبع فى يمين القدم اليمنى واليسرى .. ولكنه فى النحت التزم - بطبيعة الحال - النقل بصدق عن الواقع .

هذا هو قانون ظاهر جسـد الانسـان (التماثل وتعاكس

الجزئين) ولكن إذا فتحنا بطنه ونظرنا إلى جوفه وجدنا هذا القانون ساريا فى بعض الأعضاء دون بعض .. فلنا جزءان للرئة متقابلان نتعاكسان ، وكليتان ولكن لنا قلب واحد ومعدة واحدة وكبد واحد وطحال واحد .. ما هو سر اختلاف القانون فى الظاهر عن الجوف ؟ .. لا أحد يدرى ان كان هناك منطق جاز لنا أن نقول ان تطور الإنسان لابد أن يسير به إلى أعمال هذا القانون فى جوفه كما في ظاهره فيكون له فى يوم قلبان وكبدان وطحالان ، لأن النقلة الكبيرة فى التطور كانت فى انتقال كائن حى من التطابق على الجنبين – كما فى السمك ورأس الطير إلى التطابق والتعاكس من أمام – كالحيوانات الثديية والإنسان – أى اجتماع العينين على سطح الوجه بدلا من أن تكون واحدة عن يمين أو فوق وواحدة عن يسار أو تحت .. اعذرنى اذا سرح الذهن فى عجائب صنع الله فلن يسلم من التخريف .. ان عمرا كاملا ينصرف فى تأمل عجائب خلقة الإنسان ، ينقضى ويبقى العجب على حاله .

أقول – عودا على بدء – اننى كنت فى طفولتى أتلقى الضرب على يدى الشمال اذا هممت أن آكل أو أكتب بها ، كأننى ارتكبت جريمة فظيعة ، وظللت بقية عمرى لا أشهد

انسانا يستخدم يده اليسرى دون اليمنى الا انتابنى شىء من القلق والنفور ، وأحسست أن هذا الأشول مخلوق شاذ ، وخرق فى

قانون مســتتب ونظام سـائد ، واعتبرته من جنس يختلف عن جنسى .. ولكن النفور يتراخى ويحل محله شعور بالعطف ، أو قل بالرثاء ، وهذا تفسير ما قلته لك مرة سابقة ، لما كبرت وقرأت ان بعض علماء الفلك يقولون أن عالمنا هذا هو صورة معكوسة (وكأنما فى مرآة) لعالم آخر بدت على فمى ابتسامة رضا وعاد لى جو طفولتى بكل براءته وحيرته وتعجبه .

(« التعاون » ، العدد ٢٨٩ ، ١/ ٩/ ١٩٦٨ ، ص ١٠)

هذا العالم الخفى المجهول ..

اننا نفقد بتجاوز مرحلة الطفولة احساسا غريبا - هو لذيذ ومخيف فى آن واحد - بأن وراء عالم الواقع الذى نعيشه عالما خفيا مبهما ، يحيط بنا ، ويتدخل فى حياتنا ، ويخاطبنا صراحة أحيانا ورمزا أحيانا ، انها خسارة جسيمة ، لأننا نهبط من الروعة والدهشة والاهتزاز النفسى إلى وجود رتيب وطمأنينة تافهة مقامة على مسلمات اصطلحنا عليها ، وقلما نناقشها ، وان بقى صوت ضئيل جدا يهمس لنا بخفوت أن لا ضمان بأنها غير زائفة .. ولكنه صوت غير مزعج ، إذ اننا درجنا على الاستراحة فى حضنه بتأجيل الاجابة على الأسئلة إلى الغد ، ونحن نعلم أن هذا الغد لن يأتى أبدا . حتى إذا وصلنا إلى مرحلة الرجولة تتبعنا بشغف تحسس العلماء لهذا الواقع الخفى المجهول ، ولكن هيهات لهذا التتبع أن يثير فى قلوبنا ما كانت تحس به أيام الطفولة من الروعة والدهشة . الخبز الطازج أصبح بائتا وشتان بين الطعمين .

وقد نشأت فى بيت لا أزعم أنه كان بدعة بين البيوت ، غاية ما أستطيع أن أشعر به هو أن جوه كان يحملنى وأنا فى سن صغيرة جدا على بدء الاحساس بهذا العالم الخفى المبهم .

أتلقاه أحيانا بفزع ، حين أسمع الرعد ، كان أهل البيت يضطربون عند سماع الرعد ، ويرونه علامة على غضب الله وربما تمتمت أمي ببعض الآيات ، واستغفرت الله كثيرا وأنابت اليه

فكان هذا الرعد من اوائل النوافذ التى أطل منها إلى ما وراء، وقلبى خائف .. أول صورة ارتسمت فى ذهنى لربنا تمثلت لنا فى الرعد ، قابلته أول مرة مع الأسف وهو غضوب . أما أنه رحيم فقد تعلمته فيما بعد بالتلقين . وعشت أحاول أن تطمس صورته الرحيمة صورته الغاضبة فى قلبى ، محاولة لم تمض بغير جهد .

أتلقى هذا العالم الخفى المبهم بفزع أيضا حين أخاف من العفريت وأنا طالع السلم فى الظلام ، أو وأنا مار بالليل تحت البوابة فى الحارة ، حيث تنتظرنى الست المزيرة ، لم يكن الفزع أن العفريت أو الست المزيرة سيصيبانى بشر ، بل لا حساس بأن عالمنا مسكون بأقوام لا نراهم ، جنسهم ليس مثل جنسنا ، مهما أحكمنا غلق الأبواب والنوافذ فلن نسلم أن يكون معنا مخلوقات لا ندرى من أمرها شيئا .

وأتلقى هذا العالم الخفى المجهول بشىء من التلذذ والانبساط حين يصرنى أهل البيت ببعض الرموز ، تدل على أن هناك قوى لا نعرفها تحدثنا بهذه اللغة الحلوة الظريفة الذكية ، إذا جاء أمى صوت السقساقة قالت أننا ننتظر ضيفا ، إذا ركبت فردة شبشب

على الأخرى قالت : أننا على سفر ، إذا طرفت عينها أو شرقت وهى تشرب قالت : ان انسانا بعيدا يذكرها فى تلك اللحظة ، إذا انكسرت المرآة أو الكوب قالت : إنها أخذت الشر وراحت . إذا سمعت صرخة البومة انزعجت وقالت : ربنا يستر ، وفهمت منها أن هذا هو نذير الموت ، هنا يعود الفزع فيختلط باللذة .

وتفتح لى نافذة أخرى على هذا العالم الخفى المجهول وأنا أستمع إلى أهل البيت بشغف ودهشة وهم يتحدثون فى الصباح عن أحلامهم بالليل كأن لهم ولعا شديدا برواية هذه الأحلام بعضهم لبعض . أما عمتى الأرمل التى تقيم معنا فقد تخصصت فيما يبدو – فى أحلام تشبه الروايات الطويلة المفككة ، بلا روابط بين المشاهد ، فهى تقول لنا : أنها رأت نفسها قد دخلت حديقة يانعة ، ليس كمثلها حديقة فى الأرض ، فيها أناس يلبسون أخضر فى أخضر ، ثم إذا بها فجأة فى محكمة مزدحمة فشدتها امرأة من يدها ، تطلعت إلى وجهها فإذا بها هى/أمها التى ماتت منذ زمن طويل ، وأنها سارت فوجدت في يدها طائرا ، انقلب من فوره إلى صورة أبيها مقبل عليها بوجه ضاحك الخ الخ .. كانت عمتى لا تحاول تفسير أحلامها ، ليس فيها شىء يستحق التفسير ولكنها كانت سعيدة بهذه الأحلام التافهة ، كأنما تضاعف بها عمرها ، العجب من ذاكرتها التى استطاعت أن تروى هذا التفكك مرتبا . أما

أمي فكانت متخصصة - فيما يبدو - فى القصص القصيرة ، تروى لنا حادثة واحدة هى كل حلمها ، وكانت تصر على أن هذا الحلم رسالة موجهة إليها ، فتحاول تفسيره ، ربما رجعت إلى كتاب كنا نعتز به كثيرا هو كتاب « تفسير الأحلام » لابن سيرين .

من هذه التفسيرات تبينت بشىء من اللذة والانبساط وأحيانا بشىء من الخوف أيضا - أن هذا العالم الخفى المجهول له لغة غير لغتنا ، فهو يتكلم معنا أحيانا بالضد ، يقول شيئا ويريد عكسه ، لماذا ؟ الله أعلم . فالمرض يشير بالعافية والافلاس هو الغنى ، والموت طول في العمر ، ولكنه يلجأ أحيانا إلى الصراحة القاسية فلا يتكلم بالرمز بل يعنى ما يقوله ، لا أنسى انزعاج أمى ذات صباح لأنها رأت نفسها فى الحلم عارية . قالت : ربنا لا يحكم علينا بفضيحة .

جزى الله « فرويد » - لا أدرى هل أقول - خير الجزاء أو شر الجزاء ، فحين قرأته وجدت تفسيرات معقولة لأحلام لى كثيرة فى صباى وشبابى ، إنها كما قضت على الغموض قضت أيضا على جانب كبير من سحر هذا العالم الخفى المجهول الذى عرفته فى طفولتى .

(« التعاون » ، العدد ١٨٨ ، ٢٥ / ١٠/ ١٩٦٦ ، ص ٨)

الـــــدودة والإنســـــان ..

هل رأيت مرة لقاء دودة القز بورقة شجرة التوت ؟ الدودة قلامة ظفر ، والورقة تقارب الكف ، ومع ذلك فقبل أن يرتد اليك بصرك تكون الورقة قد اختفت عن الوجود ، غارقة في جوف الدودة ، ولكن كيف حدث هذا ؟ اننا لا نرى لعاب الدودة وهو يسيل باحتدام شهيتها ، ولا فكيها وهما يطبقان كالكماشة على طرف الورقة ، ولا ما فى فمها من مصنع هائل ذاخر بالسكاكين والتروس وآلات الفرم والطحين ، لا نعرف هل عيناها تبرقان من شدة اللهفة أم مغمضتان من فرط التلذذ ، ولكننا نشهد بمتعة كبيرة مثلا فذا رائعا لمعنى الالتهام الذى لا يشبع ، للدأب الذى لا يكل ولا يمل ، لاعتماد حياة قوم على قتل أقوام .

هاهو الخروف قد تم ذبحه ونفخه وخبطه وسلخه ، إذا استثنينا الدم - فهو حرام - فلن يبقى فيه خير الا كان مآله إلى الالتهام ، من أول العين إلى الحافر ، ومن الرقبة إلى الأمعاء ، الكبد والطحال والقلب والكليتان من الأطايب ، فهى شواء لوجبة الفطور يوم العيد . الفأر أسعد حظا منه . لأن ذيله تعافه القطة . سيبقى كأنه شاهد قبره ، محطما على الأرض ، والقبر يجرى حيث تجرى القطة . أما

ذيل الخروف فسيغيب أيضا فى البطون . الأسنان لن تكف إلا إذا أذلها برهان أكيد على عجزها ، حين تصطدم بخصم أصلب من صلابتها العاتية ستقضقض القراقيش حتى تتفتت ، وتمضغ .. ستمص النخاع ، ستعالج الغضروف – وهو فى قوة الصدف – حتى تفصله بالكحت ثم تطحنه وتبلعه . لا تقف هذه الأسنان إلا حيث يبدأ وابور الزلط . إن بقايا عظام الخروف لم تنج من هذه الأسنان إلا بقدرة قادر .

ولكن فى ركن المطبخ أو الحمام أو السطوح أو الحوش تخلف شئ لا يمكن أكله مع الأسف . شئ فارغ . كأنه المظروف الذى بقى فى مكان الجريمة بعد اطلاق الخرطوشة ، هو فروة الخروف . مكومة كأنها معطف القتيل . سقط عنه ملوثا بالدم . المعطف مات هو الآخر بموت حشوه . فبدأ كأنه رث . قديم . كهنة . روبابكية . أصبح شاهدا لا على عز صاحبه المرحوم .. بل على بؤسه وفاقته . هو لحافه ووسادته بالليل . ودرعه بالنهار . يلبسه على اللحم . بلا قميص أو جلابية .

ماذا نفعل بفروة الخروف ؟ إنها لزجة . وككل شئ لزج تصيب نفوسنا بالقرف . توحى بقدرة هائلة على أن تنفث النتن عما قريب، أن يعف عليها الذباب . لا نستطيع أن نجسها إلا بطرف عصا تقليب الغسيل فى الصفيحة . تذكرنا برائحة العطن الكريهة التى تكربنا كلما مررنا بالمدابغ .

ماذا نفعل بها ؟ وقفت البالوعة والمرحاض يتفرجان تتشف على حيرتنا . (وورونا شطارتكم) يكفيهما الدم والروث . أكبر الأمل اذن أن يرضى بها الجزار .. أجرا له . كله - ليت .. - أو بعضه . لا بأس . وإلا فسنظل نترقب بفارغ صبر صوتا يجوب الطرقات . ينادى «جلد للبيع . فروة للبيع» سنجرى لاستدعائه . ونقبل - بعد فصال قصير غير جاد من ناحيتنا الثمن الذى يحرن عنده .. إنه يمت بصلة نسب إلى (الترابية) .. نزلاء القرافة . مهنة مرذولة ، ولكن ما أشد لزومها لأهل الفقيد . ورحمتها به وبهم . تقول أمى : «لننتظر رجال الاسعاف فنتبرع بها لهم . ونكسب ثوابها » . ولكن لا أحد يضمن حضورهم ، يظهرون عيدا ويختفون أعياداً . غلبت عليهم طباع الموظفين .

وحين تنزاح رمة الفروة من بيتنا .. انزياح الهم عن القلب .. تختفى آخر ذكرى لنا عن الخروف الحى . ومأمأته الحزينة بالليل ، ينادى أو يرد بها على تفجعات تتجاوب فى الحى كله . أصبح حصصا من اللحم . مشغولون نحن بفرز ما نوزعه منها ، وما نستبقيه للشئ . للقلى . للسلق . للتشويح . للتخزين .. لا يزال على هذا اللحم أثر من نضارة الحياة .. يتوهج كأنه انتفاضة الذبالة قبل أن تنطفئ .. أطياف روائه ولونه الوردى .. تتذبذب كأنها آخر الأنفاس . الخلايا تتلكأ فى الموت بعد طلوع الروح .

ورغم هذا كله لا أدرى كيف نشأت فوجدت فى بيتنا نموذجين لفروة الخروف . واحدة بيتى . شغل يد ، من عمل بواب لأحد جيراننا . له خبرة فى الدباغة . بطنها كورق الكرتون المجعد . وظهرها صوف ملبد . والأخرى ذهبت إلى مصنع وعادت . بطنها مصقول لامع . وظهرها صوف منفوش . مسرح . ملون بتفتة حمراء . ولكن « ما ألعن من ستى إلا سيدى » .. كلتاهما لا أطيقه . فرغم شيخوختهما لا تزال تعلق بهما رائحة الخروف وزخمتها . خزين حرارة بدنه فى صوفه لم يتبخر . حتى فى عز الشتاء ينفث صهدا خانقا . وفى بيوت كثيرة كانت فروة الخروف . البيتى . شغل اليد . هى فراش الخادمة الصغيرة . على عتبة المطبخ أو من وراء بابه .

اختفت الآن فروة الخروف من بيوتنا . وحلت محلها فراء أخرى . تجدها على أبدان آنساتى سيداتى فى رحاب الأوبرا ، أو فى حفلات الاستقبال الهايلايف .. عقبال عندنا وعندك .

(« التعاون » ، العدد ٣١٥ ، ١٩٦٩/٣/٢ ، ص ١٠)

صورة مخيفة للناس والدنيا ..

صب على رأسى فى صغرى صهريج هائل من الحكم والمواعظ. بالفصحى والعامية ، نثرا وشعرا ، على لسان بنى آدم ولسان الحيوان ، رصيد ضخم من الأمثال البلدية أسمعه ممن حولى ، ورصيد أشد ضخامة منحدر من التراث أقرؤه فى الكتب التى وضعت فى يدى ، نحن في الشرق مصابون بهوس تصيد الحكمة وتقنينها والتفنن في صياغتها ، نقولها ونحن نهز الرءوس – دراية وخيلاء ، ونسمعها بمصمصة الشفاه – اقرارا واستحسانا واعتذارا .

ولا أظن أن صبيا فى مثل سنى فى الغرب تلقى على أم ناصيته هذا الشلال الذى تلقيته ، انهم يتركونه يعمل ويلعب ، ثم يرقبونه ، فإذا رأوه أخطأ أرشدوه إلى الصواب بكلام كل يوم ، فتكون النصيحة عملية . مستمدة من الواقع ، والتدريب خطوة خطوة . أما أهلى ومدرستى فكأنما أرادوا لى أن أكون فيلسوفا من قبل أن تنبت أسنانى البيض محل أسنانى الخضر .

ترنحت تحت هذا الشلال لا لقدرته على سحقى فحسب ، بل لأن بعضه كان ينقض بعضا ، بدل أن يعلمونى الفلسفة أورثونى

الحيرة ، حكم وأمثال تحض على الجد والسعى ولو إلى حد اهدار الكرامة «المحتاجة غناجه» ، وحكم وأمثال تحض على التواكل «أجرى يا بنى آدم جرى الوحوش ، غير رزقك ما تحوش» .. حكم وأمثال تدعو إلى الاقتصاد «والقرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود» .. وحكم وأمثال تزين لك «صرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب» .. الضد والضد جنبا إلى جنب . ولا من يقول لى : خذا هذا ودع ذاك ، أو متى تأخذا هذا وتدع ذاك . بل قالوا «كل شاة برجلها معلقة» تركونى فى حيص بيص .

لا عجب أن وقعت هذه الحكم والمواعظ على أذن من طين وأذن من عجين ، على لوح من المرمر لم تعلق به منها قطرة واحدة . ولعلى أكذب ، فربما كان هذا التناقض قد لبد فى ضميرى منذ صباى وهو تعليل خوفى القديم الدائم من عدم الاستقرار ومن الحيرة ، من بلبلة الفكر والعواطف ، غير أنى أستطيع التأكيد بأن نوعا من هذه الحكم والمواعظ قد رفضته منذ مبدأ الأمر رفضا قاطعا ، لفظته نفسى كما يلفظ الجسد عضوا دخيلا ، لأنه كان يخالف طبعى ومزاجى ويرسم للناس والدنيا صورة مخيفة .

وهذا النوع من شعبتين متلازمتين كالتوأمين اللصيقين :

الأولى – تحض بشدة على سوء الظن بالناس ، بجميع الناس بل الحذر منهم ، بل (ولابد لى أن أستخدم هنا كلمة «بل» مرارا لأن

الداهية ثقيلة ولأن التصاعد كان هو القائد) بل تذهب إلى حد التحذير من الأصدقاء بل من الأقارب ، بل إلى التأكيد بأن الأصدقاء همْ أشد خطرا من الأعداء . ما أكثر ما نسيت ولكن ذاكرتي تأبى أن ينمحي منها قولهم – وهذا بالنثر – «الأقارب كالعقارب» وقولهم – وهذا بالشعر – :

« احـــذر عـــــدوك مـــــرة

واحـــــــذر صديقك ألف مـــرة

فربمـــــا انقـــلب الصـــديق

فـــكان أعـــلم بالمضـــــرة »

لفظت نفسي هذه الشعبة من الحكم والمواعظ لأنها تهيم بعالم تلقى فيه الناس بقلب مفتوح ، وتأخذهم بعبلهم ، التسامح لا النفاق سلاحها ، تعلي من رابطة القرابة ، وتعشق الصداقة . ستسأل : أو لم تمر بك تجربة أثبتت لك إن هذه الحكم والمواعظ على حق ؟ أقول : ربما ، ولكن هذا هو النادر ، إن رفضى لهذه الحكم والمواعظ ربما أذاقنى المر قليلا ، ولكنه أذاقنى الشهد كثيرا . ولو أنى أخذت بها لبقى لى المر على قلته وضاع على هذا الشهد على كثرته . نعمت بصداقات عديدة كل واحدة منها تكفى لتكذيب هذا الحشد من الحكم والمواعظ ، إن أجمل ساعات عمرى هى التى تجمعنى إلى أصدقائى : بالمكاتبة أو المجالسة أو أخـذ الذراع فى

الذراع والسير كأنما على غير هدى ، إننى مدين لأصدقائى بأكبر قسط من السعادة نلته فى حياتى ، ما أحلى ترك النفس على سجيتها مع إنسان يحمل لك الود ويترك هو أيضا نفسه على سجيتها .

أما الشعبة الثانية فهى حين رتبت الفضائل حارت ثم استقر رأيها أخيرا على ألا تضع على رأس القائمة إلا فضيلة الكتمان والصمت ، الأدب العربى أغنى آداب العالم فى الإشادة بفضيلة عقد اللسان ، فأنت ترى أن هذه الشعبة لصيقة بالشعبة الأولى لأن شروط الحذر كتمان السر واطباق الفم ، وحتى لو كان الصمت ضارا فهو أفضل من البوح .

مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام .

رفضت هذه الشعبة كلها لأنى أهيم بحياة لا أجد فيها عيبا أو دنسا أو دسيسة ينبغى سترها ، فإذا عقدت لسانى شعرت بأننى أكتم اثما اقترفته أو خطة سوء أدبرها ، ما أفظع جدران الصمت التى نقيمها من حولنا بدل التواصل فواصل وعوازل ، ما أحمق الذى يتكلم عن نفسه خيرا يعلمه الجميع .. فنحن نعيش فى عالم كل سر فيه ينفضح إما عاجلا أو آجلا ، ويأتيك بالأخبار من لم تزود . هذه الشعبة من الأمثال والحكم والمواعظ هى السبب فى أن كثيرامن الناس يعيشون داخل قواقع ، بل أن بعضهم ليقفل الكتاب

الذى يقرأ فيه إذا دخلت عليه ، بحركة تلقائية ، كأن مجرد قراءته لهذا الكتاب سر ينبغى كتمانه . إننى أرثى لهؤلاء الناس من كل قلبى .

(« التعاون » ، العدد ٢٥٩ ، ١٩٦٨/٢/٤ ، ص ٨)

إنمــا الدروس من حوش المدرسـة ..
لا من الفصــل

والكلام عن المدرسة الابتدائية التى تلقفتنى من السابعة إلى الحادية عشر من عمرى . عجنت طفولتى الخام بيدين متخشبتين فى ماجورها المتحجر ، بفك عناصرها وتذويبها فى ماء آسن أولا ، والالحاح عليها بعد ذلك بالضغط والهبد واللطم ، حتى إذا تم اندماج الكل فى قوام واحد اقتطعتنى بالتقريص ، بالزج فى نار حامية رغيفا ماسخا (فليس فى عجين هذه المدرسة ملح) يشبه جميع أرغفتها الأخرى التى تأخذ طريقها إلى المدرسة الثانوية وبيدها شهادة . هذا هو هم هذه المدرسة . لها الظاهر أما الباطن فيظل مستعصيا كالنواة الصلبة ، العظام باقية تحت الجلد المصنوع لها .

فى الفصل : الدروس حبر على ورق للصب فى الذاكرة غصبا ، بلا فهم ، منبتة الصلة بالحياة والطبيعة من حولنا . لا نعلم لماذا لابد لنا أن نعلمها ، وما فائدتها . الجلسة بالأمر تربيع الذراعين . لا عجب أن أصيبت يدى بالشلل من فرط الأدب .

في الفصل : عين تراقب حركاتنا وسكناتنا ، وتهوى بالعصا على الكتف بسن المسطرة على أصابع اليد في عز الشتاء والقشف ، وأحيانا على باطن القدم أيضا . الكتكوت الذى يفك صاغرا رباط الحذاء ثم يخلعه ، فوق ألمه خجله من جوربه الممزق . أما الصفع على الوجوه فهو علاوله . كان من المستحيل ألا يكون بين طقم المدرسة من هو غير مصاب بالسادية أو ببذاءة سككية عجرية أو بدمامة الروح والذوق .

في الفصل : يجلس التلاميذ صفوفا حسب طول القامة أو البصر . شريكي في التختة مفروض عليّ ، إن لم أكرهه فهو ليس أعز أصدقائي .

فإذا دق الجرس إيذانا بفسحة طويلة اندفعنا كطلقات الرصاص كأنما من بؤس السجن إلى نعيم الحرية . ما أعلى الزئيط والزعيق . شاع الجرى والقفز . استرد كل تلميذ ذاته ، أصبح فردا لابد أن يجد مكانه في المجتمع الطليق في الحوش أن يواجه البشرية أخذا وعطاء . هنا - لا في الفصل - محك قدرته على الالتحام والمشاركة في اللعب ، وفي معجم الألفاظ المتداولة ، والرموز المتفق عليها ونوع الدعابة الرائجة . سيتبين في الحوش لا في الفصل : هل هو قادر على هذا الالتحام فيندمج أم هو عاجز عنه فينفصل . هل هو إشعاعي أم انطوائي . كيف يكون

تلقيه للنصر وتلقيه للهزيمة . سيتبين ما هو طول هذا الخيط من المطاط الذى يشيد عليه عزمه وإرادته ، وأين ومتى ينقطع .

ستندلق أمامه فى الحوض مختلف الطبائع ، ولأنها لا تزال بكرا وخاما فهى مجردة من الأغطية والأقنعة ، لا تخجل من عريها ، مأخوذة كلها مأخذ القضية المسلم بها . لكل منا حقه فى الوجود ، فلم ينضج البصر والفهم بعد للانتباه إلى القضاء ، والعجب له . ليس في اليد بعد قانون متكامل تبنى عليه أحكام . أشبه حوض المدرسة بباطن الغابة .

فى حوش المدرسة استعراض للوداعة ، أحيانا للمسكنة ، لشهوة الاعتداء ، للسماحة والمكر ، للقناعة والجشع ، للكرم والبخل ، للخطف والشحاذة ، للقدرة على القيادة والرضا بالانقياد . صراع خفى لا ينتبه إليه أحد بين نوازع الخير ونوازع الشر ، ولكن حوش المدرسة يشبه الفصل فى خصلة واحدة ، هى خلو الاثنين من الرحمة ، بل نجد فى الحوش أن قسوة الطفولة - التى يقال عنها انها بريئة ، ملائكية - أعتى من قسوة المعلم فى الفصل . بعض التلاميذ لقوا في الحوش عذابا لا يتصوره عقل . لا رحمة للأضعف أو للأذل أو للأخيب ، أو حتى للمصاب بعاهة هو غير مسئول عنها .

فى حوش المدرسة الابتدائية تلقيت أول دروس فى الجنس . فى الفصل كنا لا نلم به إلا حدسا ، فى درس الدين حين يكون الكلام

عن النجاسة الكبرى والنجاسة الصغرى ، ومتى يجب الغسل ، ومتى يجوز الاكتفاء بالوضوء . نتقلقل في جلستنا ونهر بضحك ما سخ في سرنا . وفينا من يحمر وجهه خجلا ولا يدرى لماذا . ترى ما هذا السر الذى يحجبونه عنا ؟ لا شكل أنه مهيب جدا ، وإن كنا لا ندرك أهو جميل أم قبيح ، رغم الإيحاء لنا بأنه «عيب» من أشنع العيوب.

أما في الحوش فجو يتيح للغرائز أن تتنفس . من أجسادنا الغريرة بدأ يتصاعد هبو لا يزال كأنه تأتأة من يتعلم الكلام . لو كانت لنا آذان بعض الحيوان لسمعنا أزيز هذه التأتأة التى تملأ الحوش خفية منا . الفرد فى الواحد مشرئب لأن يكون فرد فى اثنين ، النوازع إلى التكامل بعاطفة الحب تبدأ أولا باسم الصداقة، يبحث كل تلميذ عن رفيقه . قد يجده وقد لا يجده . (هذا هو الحال بقية العمر) فإذا وجده أحس بالسعادة الكبرى فى صحبته ، هو الأثير عنده تمتد اليد لتلمس اليد ، ليسرى التيار فيهما معا . ما أطيب وضع الذراع على الكتف ، أو أخذه للذراع الآخر فى تشبيكة حميمة . تموج هذه العلاقة عادة بالاقبال والصد ، بالعتاب والاسترضاء ، بل بالغيرة الممزقة المدمرة . ما أحلى الصلح بعد الخصام . ما أتعس الذى خانه صديقه فطار من يده إلى عش غير عشه . هذه هى التجارب الأولى التى تنفض من القلب كل قدراته على التموج فوق بحر العواطف . على تذوقه لما بين أقصى اللذة وأقصى الألم من درجات متفاوتة .

هذه هى البداية البريئة ، ثم لا يلبث أن تفترق إلى طبقة تعلوها فى الافصاح عن الغرائز . يحوم فوقها شبح هذا السر الذى يخفيه المعلم والأهل عنا . فهذا التليمذ الصبوح الوجه ، أو المظلظ الجسد ، أو أبو العيون الخضر التى يسيل منها العسل ، أو هذا المفرط فى أناقته ، أو صاحب هذه اللثغة العجيبة - الحلوة - إذا تكلم نجد بيننا تميزه عن الجمع . يخيل إلى أنوفنا أنها تشم فيه رائحة تجذبنا إليه . نأخذ نرقب علاقاته برفقائه وأساتذته . أصبح كل واحد منا بوليسا سريا ، يدور الهمس عنه ، يتكاثر حوله كالذباب وقطعة السكر ، أشدنا جرأة وقدرة على الاعتداء، ونقف نحن نراقب سرا نتابع حيل الصائد لاقتناص فريسته ، وحيل الفريسة للهروب ، هل تقع أم لا تقع .

أتدرى ماذا فعل العجزة ؟ ألف بعضهم من فورهم جميعة أطلقوا عليها اسم «جمعية حماية الآداب» ، غرضها الأوحد انقاذ الفريسة من الصائد .

فى حوش المدرسة - لا فى الفصل - تلقيت أول درس هام فى حياتى . فقد خامرنى وأنا لا أزال فى هذه السن الصغير شك بأن أعضاء «جمعية الآداب» ليسوا حريصين على عفة الذى يدور حوله الهمس ، بل غاضبون لأنها قد تقع فى يد غير أيديهم . بدلا من أن يذهبوا للصيد صراحة وبشجاعة تسللوا إليه بالمكر والحيلة تحت

قناع حماية الفضيلة . وكان أول فوز للجمعية مدعاة لأن يتحول الشك إلى يقين ، فرئيس الجمعية استولى على التلميذ الذى يدور حوله الهمس . أصبحنا لا نراهما إلا معا ، كأنهما فى خلوة رغم الزحام ، بين الابتسامات وقطع الشكلاتة ، وسمعنا أنهما يتفقان على مواعيد بعد الخروج ، وإنهما يستذكران فى بيت الصائد .

والله عـال . والله عـال . نسى الخائن أن هنـاك جمعية اسمها « جمعية حماية الآداب » ، وأنه هو رئيسها . ونسى أنه مكلف بدعوتها للانعقاد ، فلما انحل الرئيس انحلت الجمعية . ماتت بفضل فوزها الأول .

لم يكن غضبنا أنه وصل دوننا ، بل أنه استعبطنا واتخذنا مطية وسلاحا يرهب به ضحيته .

منذ ذلك الدرس الأول فى طفولتى لم أنقطع بقية حياتى عن الشك فى كل واعظ إذا علا غليانه إلى درجة التشنج والنحيب تفجعا للفضيلة المذبوحة .

(« المساء » ، ١٩٦٨/٣/١٨ ، ص ٤)

من كناسة الذكريات ..

كان احتفال البيت كله - الأب والأم والأولاد والصغار - بزجل جديد لبيرم - بالعامية - لا يقل - وهم من عشاق الفصحى - عن احتفالهم بقصيدة جديدة لشوقى . وصول الصحيفة اليومية التى نشرت القصيدة - بالتشكيل - فى صفحتها الأولى (فلشعر شوقى دون بقية الشعراء مكان الصدارة مهما كانت الحوادث والأخبار) ، أو المجلة الأسبوعية التى نشرت الزجل - بدون تشكيل طبعا - فى صفحة داخلية (لم تكن الصحف اليومية تنشر بعد شيئا بالعامية . تركتها لبعض المجلات ، فعصر صلاح جاهين كان لا يزال فى عالم الغيب) يالها من لحظة مضيئة فى حياتهم . أنهم تربوا على حب الكلمة ، سواء مكتوبة سواء منطوقة ، والأعجاب بقدرتها حين تنزل منزلها الحق والمبتكر معا على امتاع الذهن والروح معا .

الأيدى تتخاطف الصحيفة أو المجلة والحجة إما مقام كبير أو دلال الصغير ، خطف يعرض الورق للتمزق . ولكنه خطف فى نطاق الود لا العداء . فهو مصحوب بالضحك والعابثة . إن كان هناك غضب عند الهزيمة ، فهو مصطنع ، سريع الزوال ، ينتهى بالمهادنة ، لا يكفيهم أن يقرأها كل منهم بعينه ، ولنفسه بنفسه .

لابد لهم بعد ذلك أن يتحلقوا حول من هو بينهم أكثرهم تمكنا من اللغة وإجادة للإلقاء وهياما بالشعر إلى حد أن تأخذه الجلالة ، ليتلو النص عليهم ملتزما نغمة الإنشاد وحركة الخطيب ، لتشترك الأذن أيضا فى المتعة . والعجيب إن لسان السامع منهم حين كان ينطق سرا فى فمه بالكلمات وهو يقرأ النص بعينه ، ولنفسه بنفسه لم يكن يحس له بهجة التلاوة التى يحس بها الآن وهو ساكت داخل الفم حين يسمعها تتلى عليه إنشادا ، كانوا على غير علم منهم شهداء بأن الشعر فن يزكو بالانشاد المنغم جهرا ، ثم لا يجد تمامه ، ولا كمال رسالته إلا إذا كان إنشاده على جماعة من المستمعين المحبين له ، فهو فى الأصل فن خطابى غنائى جماعى . إنه يتطلب أن ينشأ تيار عاطفى متجاوب بين فرد وجماعة ، كما يحركهم ويطربهم هو بأنغامه المبتكرة ومعانيه الفذة ويرفعهم من هموم الأرض إلى صفاء السماء ذرى الفن والجمال يحركونه هم بعناقهم له ، الاستجابة له ، فيثبتون إيمانه بموهبته ورسالته ، شرفها ونفعها وبهائها ، الوحى للشاعر حمى لا يتبرد منها إلا إذا استحم فى تيار عاطفى جماعى يتجاوب له ، وهو الذى فجره .

ومع أن اللغة العامية كانت هى خبزهم اليومى فإنهم كانوا أقدر على قراءة القصيدة بالفصحى وإجادة إنشادها منهم على قراءة الزجل بالعامية ، دع عنك إنشاده ، فحركات التشكيل والتنوين مساعدة على التنغيم . والحرف فى الفصحى ثابت لا يتبدل .

كالهمزة بدل القاف ، والتاء بدل الثاء ، والكلمات - رغم صحة الوزن في البيت - تبدو منثورة فرادى ، كأنها غير مترابطة ، لذلك كان يرسخ فى اذهانهم من القصيدة أبيات ، على الأقل بيت واحد يكون هو بيت القصيد . أما عن الزجل فلا يبقى منه شئ . فكان بحثهم ومتعتهم وظفرهم فى قصيدة شوقى هو النغم والمعنى المبتكر ، أما في زجل بيرم فهو النكتة ، خفة الدم واستجلاء سر عبقرية اللغة العامية، ظرفها ولطفها وبراعة كنايتها ، وكانت بضاعتهم من النصوص العامية قليلة ، وقديمة ، كتاب يضم مجموعة أزجال الشيخ القوصى ، وزجل قرأوه مرة وبقى شبحه ماثلا فى أذهانهم ، للأستاذ عبد الله النديم ألقاه ارتجالا فى سباق مع الأدباتية فى طنطا ، أيام الصعلكة ، ولكن كل هذا كان له طعم الأكل البايت . ذوق العامية فى عصرهم إلا فى أزجال بيرم ، لا يدانيه شاعر آخر ، اللهم إلا إذا استثنوا حسين شفيق المصرى ، فقد كان هو أيضا محبوبا عندهم ، ولكنهم لا يدرون لماذا قدموا بيرم عليه ، لعل السبب أن حسين كان يطلع عليهم مرة بزجل بالعامية ، ومرة بقصيدة بالفصحى - فهو موزع الاخلاص ، لا يثبت على حب ، أما بيرم فقد كرس نفسه . كل نفسه ، لحب واحد ، هو حب العامية ، كان عندهم هو اللغة العامية فى عصرهم . وكانت هذه اللغة هى بيرم . كانوا شهداء على غير علم منهم بأن الفن هو شديد الغيرة ، لا يقبل غريما .

ولا ينسى ابنهم الثالث إلى اليوم خيبة الأمل التى ضعضعته مرة ، كانوا قد فرغوا من قراءة زجل لبيرم جماعة ، وانتشوا جميعا بما فيه من ظرف وخفة دم . فأخذه وطار به إلى صديق له وقال له جئتك بشئ عجب ينشرح له صدرك ، استمع ، وفرد الصحيفة وبدأت السمكة التى خرجت من بحرها تقرأ ، وإذا لسانها يتلعثم ، وإذا النغمة متأبية عليه ، هوى الرجل من شاهق ووصل إلى أذن صاحبه مهزوما مهشما ، فلم يتجاوب له ونظر إلى السمكة مندهشا حائرا من تفسير لهفتها وفرط العجب ، وأخذ صاحبنا يقلب الورق ليبحث عن الظرف واللطف ، وخيل إليه أنهما سقطا منه فى الطريق ، فكان شاهدا على غير علم منه بأن أزجال بيرم لا تزكو إلا إذا جاشت لغته من قبل عواطف التلقين ، إنها ضرب من الفن يحتاج إلى ألفة ودربة قبل أن يتم تذوقه ، وعاد إلى بيته مدلدل الأذنين . وقد باخ تحفزه وتثلجت لهفته وإن زاد حبه لأهل بيته وحمده لربه أنه نشأ بينهم .

وظل البيت وفيا لبيرم ، باقيا على حبه والاخلاص له ، يحزنهم أشد الحزن أن يفلت منهم زجل له ، وظلوا يتتبعون أخباره ، ويرثون له وهو يتلطم فى غربته فى فرنسا ، ويضحكون معه وهو يروى لهم حكايات «سيد ومراته فى باريس» . ما أشد اعتزازهم باحتفاظهم بأعداد مجلة «المسلة» التى كان يصدرها ويعجبون بفضلها بجرأته ووطنيته ، وإن ضاق صدرهم قليلا ببعض « التلميحات العامية »

الفجة فى قولة «البامية الملوكى والقرع السلطانى» تحية لمولد ولى العهد ، حقا أن الخط الفاصل بين رقة الذوق وفجاجته فى العامية وثيق كالصراط يوم الحشر ، وكانت أعز أمنية لهم أن تكتحل عيونهم برؤية بيرم ، حبذا الجلوس إليه ولو مرة ، أما الاختلاط به ومصادقته فأمل بعيد المنال ، لأن فيهم بطبعهم عزوفا من الهجوم على الناس . ورمى الجتت عليهم ، أما إذا جاءهم إنسان فأهلا وسهلا ، يعوضون بالاغراق فى الحفاوة به والإسراع إلى مصادقته ما فاتهم من الروابط التى عجزوا هم عن توثيقها بجهدهم ، ولما جاءهم ذات يوم خبر عودة بيرم لمصر ونجاته من البوليس كان هذا اليوم عندهم يوم عيد ، (وبيرم كلمة تركية معناها : العيد وتنطق بفتح الباء وتسكين الياء) .

يرجع مرجوعنا ، كبر الأبن الثالث ، وبدأ يكتب كلاما فى الصحف والمجلات ، لم يعجب وإن كان من العجيب أنها قبلت نشره، فتمطع ذات يوم وكتب مقالا يشيد فيه ببيرم وأزجاله ، وعده أيضا إماما فى فن القصة القصيرة ، اغاظة لمن يكتبونها بالفصحى ، وظهر المقال فى مجلة ، فتمطع وحزمها وأرسها بالبريد المسجل إلى بيرم وهو مقيم فى باريس ، بعد أن حصل على عنوانه من الصحيفة التى ينشر فيها مذكرات «سيد ومراته فى باريس» . كأنه يريد أن يقول له : فى مصر إنسان يحبك ويعجب بك ويشيد بفنك

ويهمه أن يبلغك هذا الحب وأنت فى غربتك ، الحقيقة أنه كان يريد أن يقول له قبل كل شئ : انظر ! أنني بدأت أكتب ! أصبحت أسير فى ركابك .

لم يحدث أن قطع نداء من ناشئ لأستاذ ما قطعته هذه المجلة من مسافات عبر البر والبحر ، ومع أنه كتب عنوانه تحت إمضائه فإنه لم يتلق ردا . يقول وهو يغالط نفسه إنه لا يطمع أن تصله كلمة شكر ، كل الذى يرجوه سطر واحد يحمل من «بيرم» تحية ، ليمتد بين الاثنين جسر ولو فى الهواء .

ومع ذلك فمن فرط حبه لبيرم لم يحزنه أنه أغضى عنه وأهمله ، دون أن يدرى أن نفقة ارسال المجلة بالبريد المسجل كلفت المحب نصف مصروفه الشهرى .

ومرت شهور ، وربما أعوام ، ونسى حكاية المقال والمجلة .

وذات يوم ابتسم له الحظ ، والتقى ببيرم ، فذكره بحكاية المقال والمجلة ، أول كلام . اعذره فقد كان لا يزال فى ميعة الصبا ، متلهفا على شهادة بأدبه تخرجه من الظلام إلى النور .

سأل بيرم : هل وصلته المجلة ؟ هل قرأ المقال ؟ فإذا به لشدة دهشته لا يجد من بيرم شكرا ولا حنانا ، بل وجده قد اربد وجهه واغبر وفاجأه بقوله :

– هو أنت ؟ الله يخرب بيتك ؟

ثم روى له أنه كان فى باريس يشكو من الجوع . ليس فى جيبه من الفرنكات ما يكفى لأكله في يومه . إنه ينتظر على أحر من الجمر أن يصله بالبريد أجر بعض مقالاته . فلما وصله إخطار من البريد أن له عنده طردا مسجلا هرع إليه كالمجنون . إذن جاء الفرج ، وأيقن أن الأمر اختلط على البريد ، فالذى وصله ليس طردا مسجلا ، بل مظروفا مسجلا داخله شيك على بنك ، وإلا فإن صديقا فى مصر قد حن عليه فأرسل له بعض الملابس أو بعض المأكولات . ومنى نفسه بدفء أو شبع ، فإذا به يفاجأ بالبريد يطالبه بدفع أرضية لأنه كان قد غير عنوانه أكثر من مرة فلم يصله الاخطار إلا بعد تأخير .

وسأل عن المبلغ المطلوب فإذا به يستنفد كل ما فى جيبه . لو دفعه لا يبقى فيه فلس واحد ، والجوع باق يحدق فيه ، فنسى نفسه وحصافته من شدة اللهفة ، ودفع المبلغ فإذا به يستلم طردا ما كاد يفكه حتى وجد فيه مجلة ، قديمة فوق البيعة ! رماها على الأرض من فوره وهو يلعن ويسب من أرسلها له وتسبب فى دفعه للغرامة ، وهى كل ما يملك !

ثم أنهى روايته وهو يقول : تعلم الآن أننى لم أقرأ مقال حضرتك يا سيدى ..

وكانت قد ارتسمت فى ذهنه لبيرم - غيبا - صورة رجل ظريف ، بحبوح ، ابن نكتة ، سريع الاقبال على جليسه ويهش له .

رجل يكره الغم والنكد ، ناج من الأحقاد ، لا يحب الشكوى ، سعيد بالمكانة التى بلغها .. فاذا به لشدة دهشته يجد بيرم حين التقاه على نقيض هذا كله . وجده انسانا يحب العزلة ، من الصنف الذى يكره أن تلمس يد غير يده ذراعه أو كتفه . يطيب له أن يجلس وحده فى مقهى بلدى فى حى شعبى ، منقبضا ، مكورا على نفسه . والتكور أيضا صفة جسده ورسم وجهه . ملامحه تكاد تنطبق بأنه يتكتم زمجرة ترتكض في أحشائه ، خيل إليه أنه يجز على أسنانه . ولما جلس إليه أحس أنه لا ينتظر منه إلا الحديث المقتضب ، كلمة ورد غطاها ، ليس له صبر ولا مرارة على اللت والعجن . فاذا تحدث هو لم يكن حديثه إلا عن شكوى من مطربة أكلت حقه ، وعن الاذاعة التى أهملت أوبريت له . فى صـوته نغمة الشكوى من ظلم واقع عليه ، وأن حقه مهضوم .

لا يستطيع أن يجزم أن هذا هو طبع بيرم الغالب عليه فى جميع حالاته ، مع جميع الناس ، ولكنه يستطيع أن يشهد أنه هكذا وجده فى المرات القليلة التى جلس فيها إليه . ثم صار بعد ذلك يتحاشى اقتحام خلوته ، لأنه لم يفلح - كما كان يتمنى - فى أن يمد جسرا بينه وبينه ، هذه المرة على الأرض لاعبر البر والبحر ، ليجد فى نهايته بيرم الذى تغنى بأزجاله مرارا ، قارئا وسامعا ، فكان يسكر طربا للطفه وخفة دمه .

وظل يتتبعه من بعد ، ثم بدأ يضع يده على قلبه خشية أن يغتال تحول ذوق العامية السريع أمام العامية في عصره ، فيسبقه الزمن ومصطلحات جديدة توافق عصرا جديدا يقدم بخيله ورجاله وسلطانه وهيلمانه .

(مجلة « المجلة » ، العدد ١٣٧ ، مايو ١٩٦٨ ، ص ٢ – ٤)

وجها .. لوجه .. !

أول مرة شهدت فيها انسانا يحتضر أمامى . يكاد فمى يلمس فمه من فرط انحنائى فوقه . أطل على تلك اللحظة المذهلة التى تقلب الحياة فجأة إلى موت ، وال (أنا) فيمن يلفظ آخر أنفاسه إلى (هو) أبدية . تنقل بقية الوجود إلى عدم ، الحركة إلى جمود . تعدد تعبير متجدد إلى شلل قناع على وجه . هل يريد أن يقول لنا شيئا ؟ .. هيهات له ولنا . لغته ليست لغتنا . انتهت الصلة بيننا بلا عودة .. تنقل بتة واحدة منطق جميع الفلاسفة فى عقد صلح بيننا وبين الكون إلى لغز مستبد لا يعرف مخلوق سره .

انه السر الالهى لا نملك ازاءه الا السكوت . ليس فى يدنا علاج ، ولا طاقة لنا على الفهم . سكوت يجمع بين بلسم الرضا والتسليم بحكمة الله ، وجرح حسرة بلهاء مشوبة بشىء من حنق مكتوم نخجل من الجهر به . فالذى يجهر به نراه جن أو كفر .

وقد أريد لى أن يكون أول موت أشهده هو موت مصفى من كل عارض عاطفى قد يزيغ بصرى عنه أو يفسد على الرؤية

المباشرة المحايدة . لادخل فى نظرتى للذاتية أو المصلحة أو الهوى . لن أكسب شيئا ولن أخسر شيئا ، فالذى حضرت موته لم يكن من أقربائى أو أحبائى أو أصدقائى ، بل كنت لا أعرف أسمه ولا آماله وهمومه ، ولا أين يسكن والى من يؤوب حين ينقضى سعيه فى يومه ، فكأننى فى معمل كيمائى نجح فى عزل ميكروب الموت ووضعه منفصلا تحت المجهر أمامى ، بلا طفيليات .

وقد يظن من كلامى – كما يقضى منطقة – أننى حمدت لقدر رحيم أن قسم لى فى التجربة الأولى هذه المواجهة المحايدة فبصرنى دون أن يفجعنى ، ولكن العكس هو الذى أقصده من كلامى ، فان هذه المواجهة كانت لها عندى بسبب هذا الحياد بعينه أثر العنف المزلزل ، لأننى رأيتنى لا أحضر موت انسان ، بل موت الانسان .

فأريد لى كذلك أن يكون أول موت أشهده هو موت يعد أبدع مثال على أن الذى يربط الانسان بالحياة أنما هى شعره أوهى من خيط العنكبوت ، ها هى ذى تنقطع صدفة ، ومن حيث لا تنتظر وضد كل منطق وحسبان وتقدير ، كأن السخف صفة لا تعرفها الحياة وحدها أحيانا بل يعرفها الموت أيضا أحيانا ، والسخف يليق بالحياة اللعوب ولكنه لا يليق بالموت الجليل . من أجل هذا زاد ذهولى ضعفين .

لم يكن من تلامذة فصلى ، بل كنت أراه وقت الفسحة فى حوش المدرسة السعيدية « ١٩٢٠ ») أو وهو راكب فى ناحية أخرى من عربة الترام وأحيانا مشعبطا على السلم ، أصادفه فى الاياب عصرا أكثر من الذهاب صباحا . لم يدر بيننا كلام، ولم نتبادل التحية ، ولكنه كان مع ذلك مفروزا عندى عن بقية زملائى المجهولين غير منضم إلى شلة تكفيه نفسه ، يعتز بكرامته يستوقف نظرتى انفراده بكبسة طربوشه فوق رأسه ، كأنما يلبسه لبس عمامة ، رأس ضخم يبدو داخل الكبسة كأنه غير مستدير بل مربع كحلقة العمامة .

ما فتئت منذ صغرى أفتن بضخامة الرأس واتساع الجبهة وارتفاعها ، وحبذا لو كانت مضيئة غير كابية . هى عندى « دينامو » جبار أحس احساسا أكيدا بأن تيارات كهربائية خفية تنبعث منه ، ومازلت مفتونا رغم الأبحاث التى تفصل بين الذكاء وحجم الرأس . وقررت أن له عقلا كبيرا وذاكرة قوية ، يهضم ما يقرأ أول مرة ولا ينساه . وغبطته على حسن حظه . عينان صافيتان يترقرق فيهما الحياء ، تريدان أن تضحكا ومنك أن تشاركهما الضحك .. فى صمت ، وحتى من بعيد لبعيد . نظرة ثابتة غير تائهة ولا مبعثرة ، كأن النظر عنده لا يعنى الا التأمل . النظرة هى التى جعلتنى أقرر أن رأسه

الضخم يحوى عقلا هو أيضا ثابت غير مضطرب ولا مرتبك ، له قدرة فائقة على الترتيب والتصنيف وتقديم الأهم على المهم. يتناول كل شىء فى أوانه . اذا عكف على عمل لا يقوم عنه الا إذا أتمه ، حتى ولو دق الطبل البلدى الذى لا ينجح شىء سواه فى هش الوطاويط اللاصقة بوجه ضحيتها ، وأنه إذا قرأ كتابا للمتعة لم يعد عنه بعد صفحات قليلة لغيره ، ثم لغير غيره .

الملل عنده نوع من الدلع والصبر رأس الفضائل .

اذن هى رأس كالزلطة إذا خبطتها فى الجدار انكسر الجدار ولم تتكسر هى .

كتفان عريضان وان كان الجسم قصيرا — أشبه ما يكون بمثلث مقلوب القاعدة — لا شىء يحمل مثل هذا الرأس الضخم الا مثل هذين الكتفين العريضين . ربطة عنقه مشتراة ولا ريب من على عربة يد أو علاقة فى درفة سوق البواكى بالعتبة الخضراء . بريق على فشوش ، ولون لا تضمه (باليت) أى فنان حتى ولو كان من أنصار السير يالية ، ومع ذلك كان من الواضح أنه معتز بأناقتها ، لأنى لم ألمحها قط مزحزحة من تحت ترقوته إلى يمين أو يسار ، أو الطية القصيرة التحتانية منفلتة هاربة من تحت الطية الطويلة الفوقانية . عند أغلب زملائى حينئذ ربطة العنق مقص مفتوح .

كل شيء فيه ينتهى إلى أنه من أصل ريفى متقشف ، مستور رغم الفقر ، ولعل صلابة رأسه الضخم حملنى على الاعتقاد بأنه من الصعيد . ولو زاره « دارون » لقال أن الضرب بالشوم فوق النافوخ هو الذى أنتج صلابة هذه الرءوس ، وخيل إلىّ أن جسمه قد ترعرع على طعام عماده البصل والعسل الأسود ، وأنه لكثرة أصابته بالأمراض أصبحت له مناعة تغالب أفتك الميكروبات .

جسم خليق بأن يعيش مائة سنة ، دون أن يعتم بصره أو يتهتم فكه ، وكنت وأثقا أنه سينجح سنة بعد سنة ، وأنه فى المهنة التى سيختارها سيصبح أستاذا يلمع اسمه لارضاء لنفسه فحسب ، بل لأسرة تحتضنه وترقبه وتعلق عليه أكبر الآمال ، ستطول به رقبتها فى القرية ويعم خيره ويفيض على أهله وعشيرته كلها .

وقبل أن أتم حديثى عن المدرسة دعنى أقدم لك كامل أفندى الأزوت ، لأنه سيلعب دورا كبيرا فيما بعد . شاب نحيل ضعيف دائم الارتباك واللهوجة ، لا تراه إلا مندفعا من باب يصدمه فى الدخول والخروج . يلبس نظارة بلا اطار تحتقر الأذنين وتنشبك بقبضة الأنف بكماشة من ذبابتين ، لا يربطها بقيطان إلى عروة سترته ، وكان يدهشنى أنها رغم اندفاعه لم

تسقط قط أو ترتفع فيها كفة عن كفة . هو محضر معمل الكيمياء فى المدرسة ، وكنا ننظر إليه باستعلاء واستخفاف ، فلا هو أستاذ ولا هو تلميذ أو فراش ، بل هو شىء بين بين . وكنا نؤمن أنه بلغ ورضى أن يقف فى المؤخرة لأنه عاجز عن شق الصفوف . لن تراه فى الحلقة الملتفة حول الحاوى الا واقفا على الهامش ووراء رجل أطول منه .

وكان أستاذ الكيمياء قد طلب من كامل أفندى ذات يوم أن يعدله الأزوت قبل بدء الحصة . فلما دخل المعمل ونحن معه لم يجده فصرخ مستفهما : « ياكامل أفندى . الأزوت ؟ .. » منذ تلك اللحظة أصبح أسمه عندنا كامل أفندى الأزوت ، وزاد استخفافنا به .

فى عز حر صيف وعز المذاكرة .. لم يكن قد بقى على الامتحان الا أيام معدودات . أجساد التلاميذ وعيونهم ذابلة ، مجهدة . الغيطان التى مررنا بها فى الصباح ممتدة من كوبرى الزمالك إلى الكوبرى الأعمى (هكذا كان أسمه) تعلوها شبورة من رطوبة ثقيلة ، ومع ذلك لم تخنق بهجتها ، بل زادتها سحرا بغموضها . لايملك القلب اذاء جمال الطبيعة الا أن يسبح بحمد ربه ، ثم يبحث عن شعر يحفظه ليرتله سرا . ليس هناك الا فيلا واحدة صغيرة ، هى لشقيق حافظ رمضان، ثم قرية العجوزة كأنها دمل فى وجه القاهرة .

فى العودة ظهر (اذ كان اليوم يوم خميس) الغيطان تكاد تسقط من شدة القيظ . كل ماتلمسه ساخن حتى خشب مقاعد الترام ، بما فى ذلك أسفلت كوبرى الزمالك ، تستطيع أن تقلى فوقه بيضة . كنت راكبا همدانا فى آخر مقعد فى العربة القاطرة محشورا بين معارف وأغراب ، ظهرى إلى ظهر السائق فى مقدمتها . وأمامى العربة المقطورة تتأرجح من فوق لتحت ومن يمين إلى يسار وبالعكس .

رأيته واقفا مزحوما مشعبطا على حافة طرف السلم الكنز فى مقدمة هذه العربة ، قد ثبتت له قدم وبقيت الأخرى طليقة كأنها ملتذة بحريتها فى الهواء فى كل مطب يضرب الكعب الحر الكعب الثابت ثم يفترق عنه . فى ذراعه الأيمن رزمة من الكتب مختلفة الأحجام لابد من ضغطها على ضلوعه ونحو ابطه لئلا تنفرط وتسقط ، وذراعه الأيسر ملتف كالحلقة الناقصة حول العمود الحديدى الواصل بين سقف العربة وأرضها ، يمسكه به عضة من ثنية كوعه عليه . هذا وضع أشد اراحة له مما لو قبض عليه بيده اليسرى فتلسعها حرارتها ويدب فيها الخور بعد قليل (أسألنى فقد تشعبطت مثله وفى موقفه مرارا) .

فى بعض المنعطفات المأخوذة خطفا كانت رزمة الكتب تدور

مع جسمه وتصدم وجه جدار العربة الأمامى القصى فيميل ويزيد - وهو يبتسم من ضغطهما على هذا الجدار حتى يملك توازنه إلى أن ينقضى المنعطف ويستقيم الشريط . بينى وبينه أقل من نصف متر . العينان هما هما رغم الذبول صافيتان يترقرق فيهما الحياء تريدان الضحك ، ومنك أن تشاركهما الضحك ، التأمل ، الفم المطبق على لسـان غير ثرثار (أننى لا أذكر شيئا عن صوته) . العزم على المضى رغم الصـعاب ، على النجاح بأى ثمن . لا دلع ولا مـدرس خصوصى .

وجئـنا إلى كـوبرى الزمالك . هـــان المشـــوار ، وزمر الكومسارى (ولا يدرى أحد أين هو ، ولا يدرى هو حال النازلين والصاعدين) ، وانثنى الترام إلى اليمين ليعبر الكوبرى منعطفا ، اذ أخذه خطفا . تمايلنا ضد حركته وصدم بعضنا بعضا بالأكتاف ونحن نسخط ونبتسم معا .

فى لحظة مرت كالبرق رأيت رزمة الكتب تدور يسارا مع قدمه الطليقة لتصدم وجه جدار المقطورة . أصبح جسمه كله معلقا فى الفراغ بين العربتين . دار حول كعبه الثابت . تراخت عضة كوعه على العمود من عضة الجذب إلى اليسار . انقلب العمود من الجزء الناقص من حلقة ذراعه الأيسر . شده نقله كعبه الثابت وأزاحه عن موضعه . لا أنسى منظر اصبعه

البنصر فى يده اليسرى ، يحاول أن يستدير ليقبض على العمود . العمود أضخم من حلقته . كدت أسمع حكة هذا الاصبع ! بالحديد . لا شك أن جلده قد تسلخ .

وهوى وغاب عن عينى . تناثرت الكتب كرش الملح ، ثم طب ، طب . قفزت المقطورة مرتين كأنها هرست زلطة وضعها صبى معابث على الشريط ، مرة بالعجلة الأمامية ، ومرة بالعجلة الخلفية .

فززان من المقاعد . صراخ . حاسب ، حاسب . فرمل، فرمل . كل من شاهد مصرعه تكهرب جسده وامتقع لونه . أحسست أن شعر رأسى كاد يقف ، فالفروة سخنت فجأة وآلمتنى . ونزلنا وجرينا إلى الوراء ربما عشرة أمتار ، فإذا هو ملقى على ظهره فوق أسفلت يكاد يغلى . بترت ساقه (لا أذكر أهى اليمنى أم اليسرى) بترا تاما من فوق الفخذ وانفصلت ، مطروحة بعيدة عنه ، لا يزال حذاؤها فى القدم ، رباط الحذاء غير منحل .

لم يخرج من يد أحد منا أن يفعل له شيئا . شلنا الارتباك والذهول ، أو قل الخوف ، بل الذعر أيضا . وفجأة برز كامل أفندى الأزوت من وسط الزحام . زايله انمحاؤه وربكته . اتخذ هيئة قائد في معركة . كان أكثرنا ثباتا وأقلنا اضطرابا . خلع

جاكتته وألقاها على كتف أحد الواقفين (لعله خشى عليها من التلوث) وأخرج مناديله يحاول بها كتم العروق المتهرئة ، يتفجر منها الدم الأحمر فى نبضات ، ثم طلب منا بلهجة آمرة صارمة ، لهجة السيد إلى أتباعه ، أن نسعفه بقميص ليعصب به الساق فوق القطع . لازلت أذكر صوت تمزيقه للقماش رغم الضجة ، وكنت قد اندفعت فوقه ، ربما بتدافع الواقفين ورائى . فمى يكاد يلمس فمه . العينان هما هما صافيتان . الفم مطبق . لم يصدر منه أنين ولا توجع ولا آهة أو تنهيدة . لم يجز على أسنانه . شمل الوجه استسلام لا حد له . لم يغب عن وعيه ولكنه لم ينطق بكلمة . أتراه من شدة الهول لم يكن يشعر بأقل ألم . نحن نصرخ من جرة صغير ..

لم أنس إلى اليوم نظرته وهى تدور علينا ، تنطق بالود وكأنها تقول لنا تعجبوا معى لما حدث . ومع أن نظرتى بقيت مسمرة على وجهه إلا أنها زاغت بعد قليل لاهتمامات حقيرة أخرى . منظر الدم المتجمد فوق الأسفلت الساخن وقد أغمق لونه . ماسورة العظمة المغروزة وسط الجزء الباقى من الفخذ وحافتها المشرشرة . منظر لحم الإنسان من الداخل ولم أكن رأيته من قبل ، الحذاء المبتور ورباطه غير المنحل .. منظر كامل أفندى الأزوت ، متألم وسعيد معا .

وقبل أن تأتى عربة الاسعاف تدق جرسها كان قد لفظ آخر أنفاسه واكتسى وجهه بالقناع .

وسرت كعابى لنهاية كوبرى بولاق لآخذ ترام الإمام الشافعى إذ كنت أسكن حينئذ فى شارع محمد على .

(« المساء » ، ١٩٦٤/٨/٣١ ، ص ٨)

المـــــوت

حين يتقدم الليل ، تتصنعين الرقاد ، هادئة كالعصفور ، يأوى متعبا إلى عشه ، يضم رأسه إلى جناحيه ، ويغمض عينيه ، مستسلما لمشيئة الرحمن ، توهمين أهلك وأعزاءك أنك قد أغفيت – وإن كان رقادك على مضض – ليناموا هم بسلام . أهب من سباتى مذعورا ، فى بهمة الليل ، والسكون شامل ، وكل ما فى الغرفة أشباح غامضة ، فأتبين جسدك الرشيق كالطيف الشفاف ، وأجدك قائمة ، قد انحنى رأسك يكاد يلمس الفراش ، إنك تسجدين لله عسى أن يرحمك ويخفف عنك العذاب ، تمدين فى حذر إلى كوب الماء يدا يكاد خاتم العرس القريب يسقط من اصبعها النحيلة .. فإذا ما تلاقت نظرتنا ، تبسمت وعدت إلى رقادك ، تظنين أننى لم أسمع أنتك المكتومة .

كنت – لأنك فى بيعة الصبا ، ورفاهية من العيش توجعين من لسع بعوضة ، فتحملت مبضع الجراح يمزق لحمك بغير مخدر ، وكنت تتأذين من أهون الدواء ، فجرعت أشكالا وألوانا من سموم تهد الجبال ، وأنت صابرة ، وكنت تجفلين من منظر (الحقنة) وتحسبين لها حسابا ، فعشت شهورا طويلة وهذه الأبرة الكريهة

تلاحقك وتنغرز فى عضلك كل ثلاث ساعات مرة ، ليلا ونهارا .. بل لقد رأيتها ذات يوم تغوص فى مقلتك ، وأنت لم تقنطى من رحمة الله . وجاء اليوم الذى اضطرب فيه صدرك ، واختنق حلقك ، وتلاحق زحيرك ، وتلجلج لسانك ، فأخذت تسألينني بيدك عن الطبيب متى يأتى ؟ فلما همدت اليد أيضا تشبثت بى عينك تقول : هذه نهاية حياتى ! وكان آخر ما انبعث من حلقك بعد ذلك من أصوات هوأول كلامك وأنت فى عالم الأرواح .

دب إليك الداء ، لا كالحية الرقطاء تغرز أنيابها فى حى لتسلها عن ميت ، بل كأفعوان هائل قد انعقد فى حلقات متشابكة ، بعضها فوق بعض ، لمسك أول الأمر بذيله فأشلتك اللمسة ونحن لا ندرى ، فلما اطمأن لعجز فريسته أخذ يتلوى ويتماوج ليخلص رأسه متمهلا يسيل لعابه ، متذوقا من قبل لذته . إذا رأى منك بادرة هروب لمسك من جديد بذيله لمسة رفيقة ، ونحن لا ندرى . واقتضته أيام وأسابيع وشهور طويلة لينفث رأسه فيقيمه ويصوب إليك عينين كالجمرتين . ما كان أطول عذابك ! أتلوميننا إذا صرخت أنانيتنا اليوم وقلنا : ليتها بقيت مريضة مقعدة ، وظلت بيننا أبدا .

وطرق الباب طارق لم يسمعه أحد إلا طفلتها الرضيعة فها هو ضحكها ينقلب نحيبا لا ينقطع أربعة أيام . من القادم ؟ أيها

الادراك المكنون فى جسم الرضيع : انطق ولو أهلكك البوح ! ماذا رأيت ؟ والطارق صابر بالباب ، فلما جاءه الاذن دخل علينا ، فانبعثت منها رائحة صلصال مبتل . لم تره عيوننا ، ولكن أرواحنا شعرت بقدوم ضيف غريب : عليه بشاعة العدم ، وجمال الخلقة الكاملة ، فيه اشراق الحكمة في ذاتها ، واظلام عبث جدواها ، نحن أيها القادم لا نعرفك إلا باسم واحد ! هو الرعب ! أحنينا أمامه الرءوس ، ووقفنا بين يديه جهلة حائرين .. ودار بينهما كلام أشرق له وجهها وطاب حديثها ، ورضيت نفسها .

وخرجنا من حيرة الموت إلى حيرة أشد قسوة . حيرة الحياة . كانت قد أرخت لنا قبضتها قليلا ، فسارعت وشدتها بقوة وجبروت على أولاد لها ضعاف حائرين .. أكلنا .. ونمنا .. وبعد أيام تسربت أولى الابتسامات إلى بعض الشفاه الحزينة ! .

(مجلة « الثقافة » ، العدد ٣٣٣ ، ١٥/٥/١٩٤٥ ، ص ١٥)

ياجحا .. ودنك منين ؟

الأزمة التى تمر بها الآن علاقتنا بالسعودية تعيد إلى ذهنى ذكرى أول منصب لى فى السلك الدبلوماسى والقنصلى .

فى سنة ١٩٢٩ كان الدكتور حافظ عفيفى وزيرا للخارجية فى وزارة محمد محمود التى عطلت الدستور . رشحه لهذا المنصب عمله السياسى المتصل وخبرته بالقضية المصرية منذ تطوعه وهو شاب حديث التخرج من مدرسة الطب بالالتحاق ببعثة الهلال الأحمر إلى ليبيا لتكون بجانب المدافعين عنها فى وجه الغزو الإيطالى سنة ١٩١٢ ، ومروره بعد ذلك بالأحزاب السياسية . إلى أن انتهى إلى حزب الأحرار ، وأشرف على تحرير صحيفة «السياسة» ، ثم شغله بعد ذلك لمنصب سفيرنا فى انجلترا ، حيث ألف كتابا عن تجاربه بها اسماه «الانجليز فى بلادهم» . يتهمه بعض خصومه بأنه استعان فيه بأبحاث مرؤوسيه فى السفارة دون أن يذكر أسماءهم .. (الله أعلم) .

لعل اعجابه بنظام وزارة الخارجية الانجليزية التى عرفت ، وهى لا تفتح أبوابها إلا لأولاد الأعيان ، كيف لا تقبلهم إلا بعد امتحان عسير يشيب لهوله الولدان .. هو الذى أوحى إليه أن يحدث خرقا

عظيما فى أنظمة وزارة الخارجية المصرية وتقاليدها .. فقد كانت هذه الوزارة مشهورة بأنها معقل المحسوبية والوسايط ، وأن وظائفها قاصرة على أولاد الأعيان المتمسحين بالأعتاب الملكية – ولو كانوا من الهلافيت – يدخلونها بغير امتحان .

هذا ما حدث عند انشائها بعد «تصريح ١٨ فبراير» ، وقسط كبير من المسئولية يقع على عاتق حسن نشأت . فلما جاء عبد الخالق ثروت للحكم فصل بجرة قلم أكثر من نصف موظفى السلك الدبلوماسى والقنصلى . لعلها أول حركة تطهير شاملة عرفتها الدواوين عندنا فى تاريخنا الحديث .

بدل «ثروت» طقما طنه صالحا بطقم حكم عليه بالفساد . وقف عند هذا الحد وعجز عن أن يضع نظاما يكفل تحقيق المصلحة العامة . لعله فطن فى نهاية الأمر إلى أن لا عمل لهذه الوزارة ما دام الاحتلال باقيا ، فهى اذن جهاز للزينة ، فلا خطر من جعلها دمية براقة يلهو بها الملك الجالس على العرش . هو الذى يرسم لها مقدار القصب المذهب الذى يتحلى به الزى الرسمى للسفير ، وتراجعا بالفائض إلى أن نبلغ زى الملحق الدبلوماسى الذى لا يزيد فى القصب المذهب على زيق صغير على طرفى الكمين ، ومن حول الوسط والرقبة .

وكانت وزارة الخارجية تشترط أيضا أن يقدم طالب ودها اقرارا بأن له إيرادا خاصا لا يقل عن عشرة جنيهات .

لم يستطع حافظ عفيفى أن يكسر شرط الإيراد الخاص . لعله كان مقتنعا بحكاية «المظهر اللائق» المطلوب لموظفى السلك الدبلوماسى والقنصلى ، ولكنه تحايل على الهرب من ضغط الوسايط بأن قرر عقد مسابقة تحاط بقدر من الضمانات - فى حدود الإمكان - ولا يكون التعيين إلا من نصيب الفائزين ، حتى ولو لم يكونوا من أولاد الأعيان .

كانت أول مسابقة تقيمها وزارة الخارجية ، فجرى فى عروقها دم جديد . البذور الصالحة أينعت ، وتألقت أزهارها . يكفى أن أضرب المثل بالأستاذ محمد عوض القونى ممثلنا الدائم فى الأمم المتحدة الآن ، فقد كان من هذه البذور الصالحة التى كسبتها وزارة الخارجية بفضل هذه المسابقة .

أما أنا فقد جئت فى ذيل الناجحين ، فلا عجب أن اختارت لى الوزارة بلدا يعد فى نظرها فى ذيل بلاد العالم كله . أعنى به جدة المثلثة الحركات - بفتح وكسر وضم - والله أعلم بالنطق الصحيح .

وكما كان بعض العمد والمشايخ يضحك على ذقن الحكومة بتقديم اقرارات بأنهم يملكون من الفدادين ما يتحقق به النصاب المطلوب لوظائفهم ، وتكون الأرض فى حقيقة الأمر ملكا للأسرة

كلها – حتى أقارب الأقارب .. كذلك ضحكت أنا على ذقن وزارة الخارجية وقدمت لها اقرارا مماثلا بأن لى إيرادا خاصا قدره عشرة جنيهات شهريا .

ولم يتأخر عنى جزاء هذا التحايل ، إذ اننى أدركت ، حين وصلت جدة فى مارس سنة ١٩٢٩ ، أن الحكومة هى التى ضحكت علىّ . فقد زعمت لى أنها عينتنى أمينا للمحفوظات فى القنصلية المصرية بجدة ، فإذا بى أتبين منذ أول يوم أن ليس فى معلوم الحكومة السعودية شئ اسمه القنصلية المصرية بجدة ، إذ كانت العلاقات مقطوعة بين البلدين .

ليس لنا قنصل فى جدة ، بل نائب قنصل ، لا تعترف به السلطات الرسمية . وكانت مصر قد سحبت القنصل منذ زمن . أما الشيخ فوزان سابق – قنصل السعودية فى القاهرة – فقد بقى بها ، ربما لأن له خيولا تجرى فى السبق ، بدون أن تعترف به الحكومة المصرية أيضا .

كان نائب القنصل لا يدعى للحفلات الرسمية ، وشأنى شأنه طبعا . وظن ذات يوم أن الجو بدأ يصفوا حين تلقى دعوة لحضور إحدى هذه الحفلات ، وكان مكتوبا على الظرف «فلان الفلانى – بجدة» ، دون أن يضاف وراء اسمه لقب وظيفته الرسمية . قلنا لعله من باب السهو والنسيان ، وذهب فإذا به – لشدة خجله – يجد

مقعده لا بين زملائه رجال السلك القنصلى ، بل بين أعيان البلد المحترمين . جلس وشرب الحساء ، ثم قام وانصرف .

سمعنا أنهم قالوا : «لعل الأكل لم يعجبه ، أو لعله أصيب بمغص مفاجى» .

كنا إذا كتبنا لوزارة الخارجية السعودية مذكرة نتلقى ردها من وزارة الخارجية المصرية ، تقول لنا : بالإشارة إلى مذكرتكم لوزارة الخارجية السعودية قد وصلنا ردها عليكم عن طريق الشيخ فوزان سابق (لاحظ الحرمان من اللقب الرسمى) وهو يفيد بكيت وكيت .. يعنى ، يا جحا ودنك منين !

وكذلك كان الحال مع الشيخ فوزان سابق بالقاهرة . إذا كتب لوزارة الخارجية المصرية مذكرة تسلم ردها من وزارة الخارجية السعودية !

ولم تكتف الحكومة السعودية بتجاهل ممثل مصر لديها ، بل ألغت أيضا الامتيازات الجمركية التى كانت ممنوحة للتكية المصرية فى مكة والمدينة .. أذكر أننى ضربت كفا بكف يوم دفعت مائة جنية للسماح بدخول دمجانة من الكحول النقى مطلوب لطبيب التكية الذى يعالج فقراء مكة بالمجان .

ولم يأت المحمل من مصر بالكسوة الشريفة خلال إقامتى بجدة، لا فى سنة ١٩٢٩ ، ولا فى سنة ١٩٣٠ ولكن «الصرة» وحدها هى

التى جاءت ، لأنها من أوقاف المسلمين الذين يتلون فى كتابهم الكريم «ربنا أنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم» فوزعنا الصـرة بالتعـاون مع السلطات التى لم تتجاهلنا هذه المرة .

ولكن ينبغى لى أن أشهد أن هذه القطيعة كانت قاصرة على العلاقات الرسمية ، وبقيت علاقات الناس فيما بيننا مشبعة بالود والاعزاز - لا فرق بين رجال الحكومة وأفراد الشعب .

(« المساء » ، ١٩٦٦/٩/١٢ ، ص ٦)

حفلة موسيقية « كتيمى »

وصفت لك أول مقامى سنة ١٩٢٩ بجدة ثغر الحجاز ، وبها قبر أمنا حواء طوله عشرون مترا على الأقل .. لو كانت تلبس لخربت بيت آدم ! كان العرى نعمة .. تعال الآن لتشهد معى أول حفلة موسيقية حضرتها بجدة . ولكن ينبغى أن أخبرك أولا أن الحكم الوهابى الجديد حينئذ (وكل غربال جديد وله تعليقة) كان يحرم الموسيقى تحريما صارما . لا يسمح لفونوغراف أو اسطوانة بدخول البلاد ، حتى (مزيكة الفم) التى يلهو بها الأطفال تصادر فى الجمارك ، فما بالك بآلات الطبل والزمر . مرت علىّ سنتان لم يقع فيهما بصرى قط على آلة موسيقية ولو معطلة فى سوق الكانتو، ولم أسمع عزفا من أى نوع كان . أما الغناء فقد نجا من التحريم إذا كان غير مصحوب بعزف ، وغير مستورد ، أى لابد من إلتزام الغناء الحجازى ، وهو أشبه شئ بالحداء .

حضرت حفلة عرس ذات يوم . جلسنا فى العراء أمام بيت العريس (الدنيا حر ، درجة الحرارة ٤٥ ، ونسبة الرطوبة ٩٠ ٪ على الأقل) . على دكة قعد رجل معمم بشال أصفر مبرقش ، ليس

معه تخت ولا سنيد حتى ولو بالزن كما كان العهد بسنيدة أم كلثوم في أول طلوعها بالقاهرة .. ياله من زن عائلى محض !

انطلقت الدودة الوحيدة فى الغناء ، أو قل الحداء ، والجميع جالسون فى صمت عميق ، كأنما حط على رءوسهم الطير (لابد من هذه الاستعارة فنحن فى بلاد العرب) وحين يحس المنشد أنه أشبع سامعيه ، وأن صدورهم متلهفة على وقفة تتيح لهم التعبير عن طربهم (لعله يحس هو أيضا أنه فى حاجة إلى محطة يستريح عندها ويسترد أنفاسه ويجفف عرقه) تخير مقطعا يقف عنده ينهيه بنغمة أعلى مقاما وأطول مدا . حينئذ يدرك الجميع أن الاذن قد جاء منه إليهم بأن يعبروا عن طربهم ، لا قبل ولا بعد . وقبل أن تنتهى نغمة المنشد تلتحم بها الطبقة العليا ذاتها نفثة مدوية كالهدير من مستمعيه تقول (الله) فى مد طويل ، ثم يعودون إلى الصمت المطبق إلى أن يأتى المحطة التالية .

صدقنى ، تمنيت أن نقتبس هذا التقليد ليعفينا من الصرخات الفجة التى نقاطع بها غناء أم كلثوم .

لم يرتفع صوت يقول (أعد) . حتى التصفيق بعد نهاية الوصلة غير مألوف . قام إليه بعض المخبوطين وربتوا على كتفه ، وبعضهم لثم يده ، هذا كل ما فى الأمر . لم يطربنى غناؤه بقدر ما أطربتنى لهفة المستمعين حتى أننى شاركت

فيهـا على خـلاف عادتى . كانت تنطلق بأن حجرا ثقيـلا أزيح عن الصـــدور . إن الشعوب تتلهف للجمال .

صديقى حسين شاب حجازى ابن أصل ضخم الجسم ، لا عجب أن كان كبير القلب ، ولعل افراط جسده فى النمو جاء على حساب نمو روحه فلا تزال به مسحة من سذاجة الأطفال . أقبل على متهللا يبشرنى أنه أفلح هذا الصباح فى تهريب اسطوانة مهمة جدا لعبد الوهاب ، هى قصيدة شوقى (ياجارة الوادى) . لم تمتلئ الجزيرة العربية كلها فى ذلك الوقت كامتلائها) بـ (ياجارة الوادى) . سارت بها النار فى الهشيم (عدنا للاستعارة) ودعانى بالحاح أن أسمعها عنده مع رفقة من أصدقائه .

كانت الوسيلة المفضلة فى تهريب الاسطوانات هى وضعها بين (ثوبين) فى طرد «المانيفاتورة» ، والنتيجة أن جميع اسطوانات الحجاز كانت فى ذلك الوقت مقرطمة ، طارت منها شطفة . لم يتمتع أحد قط بالاستماع إلى أغنية من مطلعها .

الغرفة داخلية لا تطل على الشارع . هذا شرط مهم ، مزدحمة بشبان متساندين بعضهم إلى بعض ، كلهم بلحية قصيرة مدببة . الجو حار ، مختنق بالدخان ، ومع ذلك فالنوافذ محكمة الغلق .

وفى الغرفة كنبة عريقة (وهذا شرط مهم ثان) . ووضع حسين الفونوغراف اليدوى تحت الكنبة ، وجاء بفوطة كبيرة سد بها الفجوة

التى يخرج منها الصوت ثم رقد على الأرض ، وجاء بالاسطوانة المشطوفة ، ثم غرز فى يد الفونوغراف ابرة رفيعة جدا - صنف يختص به الحجاز وحده دون سائر البلاد !

وظهرت على وجه حسن علامات هم شديد وهم يحكم وضع الابرة على الاسطوانة المشطوفة الدائرة .. لقد قصفت منها كلمات «ياجارة الوادى طربت» .. فيتوقف على حسن احكامه أن تبدأ الاسطوانة بـ «نى ما يشبه الأحلام» أو «.. دنى ما يشبه الأحلام» . هذا ما يمكن استخلاصه من كلمة «وعادنى» . حسين لا يريد أن يفلت منه حرف الدال بأى حال من الأحوال ، فهو يجرب مرة وأخرى حتى يصل إليه دون أن تصادف الابرة الطرف المشطوف .

هكذا استمعنا إلى «ياجارة الوادى» . صوت عبد الوهاب كأنه صوت الشيخ على الذى تزعم إحدى نساء القاهرة إنه يكلم زبائنها من تحت الأرض .. وهى التى تكلمهم من بطنها .

انتهت الاسطوانة ، وصمم جارى أن يديرها بنفسه مرة أخرى . هو شاب سورى يستوطن الحجاز ، يلبس جلابية سكروتة ، فوقها صديرى سكروته ، فوقه جاكتة سكروتة ، ورأسه معمم بشال أصفر مبرقش كشال عبد الوهاب الحجاز . هو يجيد عزف العود ، وعوده مكسور وأصبح ترابا ، ويجيد العزف على البيانو ، وهو مفكك موضوع فى مخزن البضائع فى متجر أبيه ، يود أن يشرب ، ولو

ضبط شاربا لحبس ستة أشهر ، وكل شهر ستين جلدة على قارعة الطريق وعلى مرأى من الناس جميعا . وهو فوق ذلك يجيد الغناء ، ولكن لا يستطيع أن يغنى فى غرفة مقفولة ، بدون عود ، بدون ويسكى ، بدون حرية ..

أصر على أن يدير الفونوغراف بنفسه طوال الحفلة الكتيمى ، يكاد يلتهمه ويأكله أكلا . وبين كل اسطوانة وأخرى تنهيدة عميقة ، يتمتم بعدها بصوت حلو (ياليل) أو (آه أنا عشقت) أو مطلع دور عراقى ، ثم يسكت كأنما غاب عن الوجود . ثم يستفيق ويعود إلى الفونوغراف .

لم يكن مدعوا لهذا الاجتماع ، ولكنه سمع أصواتنا فدخل على حياء إلى البيت ، وهمس لى دون أن يسمعه بقية جيرانه إنه تردد على السلم ، هل يطلع أم ينزل ، نزاع بين أدبه وطربه ، انتصر الطرب على الأدب ، فدخل علينا ،.ولكن الجميع يعرفونه ، فقابلوه بفرح شديد .

هو ابن تاجر «مانيفاتورة» . أصبحت بعد ذلك لا أمر على دكانه إلا وقفت عنده ، وسلمت عليه . أراقبه جالسا القرفصاء يبيع لهذه وذاك ، فى سوق قذر مقرف ، هواؤه ملئ بالذباب يضيق به أوسع الصدور وأشدها حلما وبحبحة . ومع ذلك فهو مبتسم ، ثم يميل على ويغنى لى همسا' مطلع لحن ، أو يفتح دولابا صغيرة ويخرج منه ورقة بها نص دور جديد يحفظه على مهل .

أين أنت الآن أيها الفتى .. أتحت الثرى أم فوقه ؟ .. أتمنى أن يكون عمرك قد طال كعمرى ، وأن أعود فأُقابلك يوما لأرى هل الشيخ لا يزال يتمايل من الطرب ويتمتم بمطالع الأغانى كما عهدته فتى يجلس بجوارى فى الحجرة الحبيسة فى الحفلة الكتيمى ، أتمنى أن تقع عينك على ما أكتبه الآن لتعلم أن صورتك بقيت فى ذهنى رغم مرور أربعين سنة .

وختام هذا المقال أن أصف لك الحفلة الغنائية الثانية والأخيرة الباقية عندى من سجل الحجاز ، لتعرف كيف يتحايل الطرب على كسر القيود وهدم السدود .

نحن فى المدينة المنورة ، فى بيت رجل ثرى . فى البهو الفسيح فسقية مرمرية تلطف الجو هى فى قاع منور عال يستدرج تيارا من الهواء من أعلى العلالى (أتمنى أن أعيش فى بيت مثله فى القاهرة) . وحول الفسقية اصطففنا مع الغروب على الشلت حول براد الشاى ، للشرب منه مراسيم طويلة ، تغطية الابريق بفوطة ، صب مقدار ضئيل فى كوب صغير لنذوقه فنعلم هل نضج أم لم ينضج . الصبر عليه قليلا ، صبه من علو حتى تشترك الأذن مع الأنف واللسان فى لذة . كيف تمسك بالكوب الصغيرة بين اصبعين ، كيف تأخذ منه أول شفطة .. كلها محددة فى كتاب شفوى مقدس .

وسبب اللمة هو الاستماع إلى مطرب ، هو هذه المرة رجل بدين يرخى ضفائر له طويلة ، لولا العقال الذهبى لحسبته زوجته لا هو .

أغناء فى مدينة أطهر القبور ؟ ! ولكن مهلا مهلا ، إننا لن نستمع إلا لتواشيح دينية ، وقصائد فى مدح الرسول ، فلا أثم علينا . ولكنى لاحظت بدهشة شيئا لم أعرف سببه فى مبدأ الأمر . المستمعون يزحلقون المنشد بسرعة لينتقل من دور إلى آخر ، ليجئ الوقت الذى يستطيعون فيه بلا خجل أن يرجوه غناء قصيدة «أنا على دينك » .

زالت دهشتى حين تبينت أن أغنية «أنا على دينك» هى نسخة طبق الأصل لحنا ونصا ولهجة عامية مصرية لأغنية أم كلثوم التى كانت شائعة فى ذلك الوقت ومطلعه «أنا على كيفك» .. حينئذ اهتز جميع الحاضرين من شدة الطرب ، وطفح البشر على الوجوه .

انظر كم كانت بارعة وساذجة معا حيلتهم فى كسر القيود وهدم السدود لينفذ الطرب إلى قلوبهم ولو من أضيق ثغرة .

(« المساء » ، ١٩٦٦/٩/١٩ ، ص ٦)

من جراير الموسيقى

بعد أن وصفت لك فى المقال السابق الحفلة الموسيقي الكتيمى فعلمت مبلغ كراهية المذهب الوهابى للموسيقى ، أتابع ذكرياتى عن الفترة التى عشـــتها فى جدة (سنة ١٩٢٩ و ١٩٣٠) أمينا لمحفوظات قنصلية غير معترف بها (نقبى طلع على شونة) لأن العلاقات الدبلوماسية بين مصر ومملكة نجد والحجاز (لم تكن مودة الغاء اسم البلد التاريخى وتسميته باسم الملك - كأنها عزبته - قد ظهرت بعد ، من قولة السعودية ، الهاشمية - المتوكلية - ماركة عربية مسجلة مع الأسف) قد قطعت قبل وصولى بأربع سنوات تقريبا .

لم يكن هذا القطع لخلاف فى السياسة ، أو لتضارب فى المصالح ، وكلتاهما فى منطقة النفوذ البريطانى - بل لسبب لا يخطر بالبال . أتعرف ما هو ؟ انه هذه الفرقة العسكرية الموسيقية (نحاسية ونواقير) التى كانت تطلع من مصر مع المحمل ، لتزفه فى الطريق ، ذهابا وايابا .

أنت لا تدرى كم كانت فرحتنا أيام الطفـولة بهذه الفرقة الخيالى ، يوم أن نصطف (واليوم عطلة رسمية) على السلم

الرخامى لسبيل أم عباس فى الصليبة لنشاهد نزول المحمل من القلعة ، حيث كانت تنسج على تؤدة خلال العام كسوة الكعبة الشريفة ومقام سيدنا ابراهيم الخليل ، مطرزة بخيوط الذهب ، موشاة بأجمل خط . لا يبدأ العمال نسيجها الا بعد الوضوء وقراءة الفاتحة . الكسوة القديمة تباع فى مكة بالسنتيمتر ، بأغلى الأثمان . وكان فى حينا أسرة عندها قطعة منها ، تتوارثها جيلا بعد جيل ، يشحذها أهل الميت من الجيران لوضعها على الخشبة من قبيل التبرك .

قلوبنا متعلقة بأربع متع ، عيوننا متفتحة لتلتهما ، تكاد تبظ . لو ضاعت منها فتفوتة لم تتم الفرحة . الأولى هى جمل المحمل . انه جمل أبيض مهول ، يشف ويرف من شدة النظافة ، وبره منفوش ، ضخم ولكنه رشيق . انه فى نظرنا لا يمشى بل يتبختر كالغزال ، وندرك أنه هو مدرك لهذا العز كله ، وأنه به فخور . يقال لنا لا يأكل الا اللوز ولا يشرب الا ماء الورد ، وانه اذا وصل الكعبة ومقام الرسول عليه الصلاة والسلام ركع وتمرغ على الأرض من شدة الوجد ، وترقرقت الدموع فى عينيه . فاذا عاد بالسلامة أعفى من العمل مهما كان تافها ، وعاش مرفها فى التبات والنبات .

والمتعة الثانية هى تكحيل العين برؤية بهاء هذه الكوكبة من الجياد العربية الضامرة ، أغلبها أبيض كاللبن الحليب ، فما أجمل

اذن على هذا البياض لمعان عيونها السود الواسعة . ان الحلاوة تقطر منها ، والكبرياء والطيبة معا . انها مثال مجسم للنبل . فاذا كانت شقراء – أى ضاربة للحمرة – فما أجمل غرتها البيضاء ، هى كالهلال ، وبقية من نوره قد لمست كعب أحد الساقين من خلف . ليست هذه الزينة عن عفو ، بل عن عمد .

لا حيوان يبهج القلب مثل الجواد الجميل الأصيل ، عشقه العرب عشقا مدلها ، وكانت اللغة العربية وهى تتغلغل إلى قلبى تحمل إليه أيضا حب الخيل . ولا أعرف لغة مثل الفصحى انتبهت لأوصاف الخيل ، وصاغت لكل وصف لفظا .

تمر أمامنا وهى تتوثب ، وتلوى رقابها ، وتهمهم بخياشيمها كأنها لها احتجاج . وكنت مع ذلك ، لا أخفى عليك – فالصراحة محمودة – أستر يدى وراء ظهرى خشية أن تقع ندعة من رذاذها ، فقد قيل لى بكلام أكيد ان (القوبة) ، وهى جنس من بثور جلدية صلبة تنبت من بذرة رذاذ الحمير . وكنت أقول لنفسى سرا : وربما من الخيل أيضا .

مازلت أذكر – صدقنى – كيف يلحظ قلبى وسط الفرح هذا الفارق الواضح بين الجياد والفرسان . الجياد جميلة كالعرائس المجلوة ، آثار العناية بها واضحة ، شبع ورى وتطهيم و والشبع من أكل محترم . أما الفرسان فكالعوسج النابت من الأمية وطين

الفلاحة وكروانة العدس وذل الفقر والامتهان وضياع الواقعين من قعر القفة . يصدر منهم صهد خشن وبواخ بعيد . تتلمظ على أكلة حلوة أو لقمة هنية .. فلا نحس أننا نتجنى عليهم أو نهينهم ، ونحن نترنم سرا اذا رأيناهم ، بأغنية كانت شـائعة أيام طفولتى ، مطلعها : « ولبسوك الزعطلون يا محمد » .

والمتعة الثالثة أن نرى - من بين سائر الفرقة العسكرية الموسيقية الخيالى - ضارب الطبلتين الصغيرتين الموضوعتين أمامه على صهوة الجواد ، لأنه هو وحده الذى لا يمسك بلجام . فنعجب كيف يتاح له أن يركب ويقود ويداه طالعتان نازلتان بالدق على الطبلتين . تؤكد لى ذاكرتى أن لجواده كسوة من جلد النمر .

والمتعة الرابعة وهى تمام المتع أن نشنف آذاننا بسماع مارش المحمل ، وكنا نحفظ أيضا مطلع نصه ، وهو يقول : « يا محملنا روح وتعال بالسلامة » .

وبعد كوكبة الفرسان تأتى فرقة من المشاة . الجنود يسيرون فى انتظام والبنادق على الأكتاف ، يتصنعون الجد وفقا للأوامر ، الا أن العيون تنطق بالفرح . لا يحدث تبادل نظرات ود فى موكب عسكرى بين الجنود والجمهور كما كان يحدث فى موكب المحمل . ومع ذلك لم يكن جو المرح بفالح فى منع قلبى من الاهتزاز وعينى من رقرقة الدمع ، وأنا أحس أن هذا الجيش هو منعة الوطن . لم

يتمثل لى الوطن فى صورة واضحة ملموسة الا عند رؤيتى لاستعراض عسكرى ، ولا يتغير هذا الاحساس اذا كان الاستعراض العسكرى لجيش وطنى أو غير وطنى ، لأن فكرة فى ذهنى أسمى من الفوارق ين الأمم .

وأصبح هذا الاحساس يغلبنى فيما بعد حين بدأنا نعرف استعراض مواكب الشباب (من فتيان وفتيات) فى الحفلات الرياضية . هنا يضاف إلى الوطن تطلع الأمل والمستقبل . الأساس واحد ، انه الاهتزاز للشعور يمنعه الوطن . والغريب أن الدموع كانت تطفر من عينى اذا شهدت استعراضا عسكريا من حماة بلدى حتى أيام كنت أهفو من قلبى أن يسود السلام بين جميع الأمم .. وقد حرمت من لذة هذا الهفوان منذ أن قامت اسرائيل . وتلك هى نكبتى .

هذه الفرقة العسكرية الموسيقية تصاحب المحمل لتزفه طول الطريق إلى أن يبلغ غايته فى مكة والمدينة المنورة ثم يعود . ولست أريد أن أكثر عليك فى تاريخ المحمل المصرى منذ شجرة الدر . ستجده مشروحا أو فى شرح كتب كثيرة ، ولكنى لابد لى أن أذكر لك أن طلوع المحمل كان دائما بمثابة حملة عسكرية لحماية الحجاج من خطر الاغتيال والنهب والسلب على طول الطريق . كانت تروى لنا ونحن أطفال حكايات عن مخاطر الطريق يشيب لها الشعر .

لا عجب أن كان أمير الحج يختار دائما بين كبار الضباط ، ليتمم على السلاح والذخيرة قبل التحرك . تجد في « الجبرتي » وصفا منفصلا للاستعدادات العسكرية لخروج المحمل . وكلمة « عرضي » التي تصادفك في هذا الوصف وكنت لا أفهم معناها قبل سفري لاستانبول وتعلمي لغة أهلها هي كلمة تركية معناها الجيش .

وبعد أن وصفت لك الحفلة الموسيقية الكتيمي ، وكيف أن (مزيكة الفم) التي يلهو بها الأطفال كانت تصادر في الجمرك بعد أن استولى الوهابيون على الحجاز .. تصور كيف يكون الحال حين تشق جموع الحجاج من غلاة الوهابيين فرقة موسيقية بأكملها ، تلعلع وتنفخ في الأبواق وتدق على الطبول .

وكاد أن يقع صدام مسلح بينهم وبين حملة المحمل المصري ، وخيف أن تنطلق النيران من الجانبين . ومرت لحظات رهيبة لا يعلم أحد ماذا كان سيحدث لو أن اصبعا هائجا ضغط على زناد . وأرسل الملك ابنه سعود ففصل بين الجمعين .

فكانت هذه الحادثة هي السبب في قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين ، أو قل بين الملكين .. وإن كانت هناك أسباب أخرى أتركها إلى حين .. وكل هذا كما رأيت من جراير الطبل والزمر .

(« المساء » ١٩٦٦/٩/٢٦ ، ص ٦)

هذا الشبل من ذاك الأسد ..

الصحفى الانجليزى فيلبى - هذه هى مهنته فى الظاهر والله أعلم بالبواطن) . غطس فى بيروت وقب فى موسكو .. اصبح معروفا فى العالم أجمع بأنه « الرجل الثالث » ، لا لأن الصدفة شاءت أن يكون السابقون إلى الهرب لموسكو بوحى منه هما اثنان (الدبلوماسى الانجليزى ماكلين وزميله) فصدق وصف فيلبى بأنه « الرجل الثالث » ثالث ثلاثة ، بل لأنه هذا التعبير أصبح يدل لا فى اللغة الانجليزية وحدها ، بل عند الناس جميعا على الرجل الداهية ، المحاط بالغموض (ولا أقول بالضباب كالنقاد المحدثين عندنا موديل سنة ١٩٦٣) الذى يحب العمل فى خفاء ، ومن وراء ستار . والفضل فى شيوع هذا التعبير يرجع إلى القصصى الانجليزى البارع جراهام جرين (كلهم انجليز فى انجليز !) لأنه هو الذى أطلق على بطل السيناريو الذى كتبه منذ سنين لفيلم « الرجل الثالث » ، وهو رجل أفاق كان يتجر سرا بالمخدرات فى أنقاض برلين بعد الحرب ، ولا يبالى من تكون ضحيته .

ياالقسوة السينما ، ويا لفرحة جراهام جرين وهو يرى تعبيره يجرى على كل الألسن . ان الكاتب – لا عالم اللغة – هو الذى يثرى

كلام الناس ويلونه ، ويهبه ذوق العصر ودلالته . حقا ان مثل هذا التعبير قد يبلى سريعا ، ويلقى فى سلة النسيان ، ويحل غيره محله ، ولكن قصر عمره لا ينفى طلاوته وقوة نفوذه ولو إلى حين ، شأنه فى ذلك شأن الموضة ، أو شأن أغنية خفيفة نسمعها فنؤخذ بها ونحبها ونراها جديدة كل الجدة ، ثم نفتح العين ونغمضها فاذا هى قديمة قدم القبور المهجورة ، مبتوتة الصلة بقلوبنا وأذواقنا . ونعجب كيف سحرتنا ذات يوم ، ما هو الا الأمس القريب .

ولما علمت أن فيلبى الصحفى هو ابن سان جون فيلبى أو الحاج عبد الله فيلبى قلت فى سرى : هذا الشبل من ذاك الأسد . (والعجب أن الابن هرب من بيروت ، وأن الأب مات فى أول أكتوبر سنة ١٩٦٠ فى بيروت) . هل تكون بيروت هى المدينة الثالثة ؟

وقد عرفت الأب (نجم الأسرة ولا ريب) فى ثغر جدة سنة ١٩٢٩ حين نزلتها أعمل سكرتيرا لقنصليتنا هناك وأنا فى مقتبل الشباب . انه هو بعينه « الرجل الثالث » الذى رآه جراهام فى أحلامه . هو الغموض والعمل من وراء ستار ، هو حب المغامرة ، والترحيب بالمناكفة. صفات أورثها لأبنه ولا ريب . كلا الرجلين أحب الشرق ووهبه قلبه ، وحاك له دسائسه .

كان الأب يتقن من لغات الشرق اللغات الهندستانية والأردية والعربية ، لا العربية الفصحى فحسب ، بل لهجات قبائلها .

فباللهجة النجدية كان يتحدث إلى المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود ، وقت أن كان نديمه وأمين سره ، مع أننى حضرت يوم الحج سنة ١٩٢٩ مجلس الملك فلم أفهم عنه - أنا العربى المسلم - من قوله الا ثلثه ، وان قلت الثلث فقد أكثرت ، مع أن أذنى كانت متعلقة بكل كلمة ينطق بها .

الأب والابن كلاهما خدم وزارة الخارجية جهرا ، ثم فضل أن يخدمها سرا تحت قناع آخر . الظاهر أن حب الجاسوسية يجرى فى دم الاثنين كليهما ، والطينة واحدة .. رضى فى سبيل تحقيق مأربه أن يهجر زوجته .

كان لفيلبى الأب رأس كالزلطة لو خبطته فى جدار لما أصيب بخدش وانهدم الجدار . لا عجب أن كان داخل هذا الرأس ذاكرة كالحديد وعقل جبار لا يكل ولا يمل . وكان له وجه محمر مقشور ما أظنه عرف الكسوف فى يوم ، ونظرة تنفذ من الحديد، ما أظنها انكسرت فى حياء مرة . وكانت له لحية كثة بلون الحناء - لا تنس أنه من محاسيب المذهب الوهابى - وما كان بحاجة إلى أن يصبغها بلون أزرق ، اذ كنت لا أراه - ولا أدرى لماذا - الا فى صورة الرجل ذى اللحية الزرقاء . ولما زرته فى بيته تأكد احساسى كما سترى فيما بعد .

من الانجليز من هو غاية البرود دون أن يتصف بثقل الدم ،

ومنهم الأنيس اللطيف المعشر . أما فيلبى الأب فـكان متجهم الوجـه ، وعر الجانب ، لو مسحت يد السماحة على وجهه لعلقت بها جهامته . لم أره يبتسم الا قليلا . ولا أدرى لماذا أيضا أحسست أنه يعيش فى عزلة دائمة ، وأنه ليس له صديق . ولعل من شروط نجاح الجاسوس ألا يكون له صديق بحق وحقيق .

جدة فى الصيف جهنم وذباب ، ورطوبة وبعوض . هى حمام تركى ، والهواء هو فوطة الحلاق الساخنة المبتلة التى يضعها حول وجهك اذا كنت من زبائن صـالون لكس . طفح حمو النيل على جلدى ، كل بثرة كرأس الدبوس ، تتلذذ وتعذبنى بالهرش . غام بصرى ، العرق لزج كالغراء ، يتصـبب منك وأنت سـاكن فى الظل لا تأتى بأقل حركة .

كنت لا أعرف أكتب الا اذا وضعت تحت يدى ورقة نشاف . خليج البحر الذى يمر أمام القنصلية مدلوق من زقاق داخل درب فى البحـار ، ماء عكر راقد لزج ، ليس هناك حد فاصل بينه وبين الهواء الذى يعلوه . الود ودى أن لا أنضو ثيابى وحدها ، بل جلدى أيضا . الملبس النظيف لا يفترق عن الملبس القذر ، ولم يكن فى مسكنى « دش » ، بل كنت أستحم بالكوز من صفيحة فى طشت غسيل .

كنا ننفر اذا حل المساء من باب الكوشان فى سور جدة لننفذ

إلى الصحراء علنا نصطاد نسمة تائهة من الهواء ، ونمر بقبر أمنا حواء ، وهو قبر طوله ٦٠ مترا على الأقل ، لا أدرى ماذا كان سيفعل سيدنا آدم اذا طلبت منه بدل ورق الشجر أن يشترى لها قماشا .. لماذا كان لها دون سيدنا آدم قبر ؟ لم أجد عند أحد جوابا . الحقيقة أن المعر فى حجم القبر صدنى كلما مررت به أن أقرأ الفاتحة سائلا المولى أن يغفر لها ما فعلته بنا .

فى البحث عن نسمة هواء كنا لا نتطلب من الحديث الا أتفه وأخفه ، ومن الحركة الا أقلها . لو أعطى لى حينئذ كتاب صغير مكتوب بخط كبير وقيل لى لو قرأته فستشرب علم الدنيا والآخرة فى جرعة واحدة لما وجدت فى نفسى همة لأفتح غلافه أو أرمى بنظرة إلى عنوانه . الله الغنى ، التنفس – لا الأدب وحده – مطلوب قبل العلم .

ثم نعود فى الساعة الواحدة أو الثانية صباحا – يالضيعة الوقت فى فاشوش – فأمر ، والفجر يقترب ، تحت بيت فيلبى الأب فتتسمر قدماى . النور مضاء ، تكتكة التايبريتر فى سرعة القطار . انه يشتغل إلى هذه الساعة المتأخرة من الليل لم يخرج مثلنا لقتل الوقت ، لأن معدنه ليس معدننا ، وهمته ليست كهمتنا . ان له هدفا يتلبسه ويلح عليه فينسى من أجله الحر الجهنمى والعرق اللزج وكل شكوى أخرى من شكاوانا السخيفة . هذا الهدف هو بناء صرح

الامبراطورية ، ولا بأس من أن يقيم إلى جانب هذا الصرح قصرا يسكنه فيلبى ذو اللحية الزرقاء ، وقصرا يسكنه فيلبى المستشرق ، وقصرا يسكنه فيلبى الرحالة جواب الصحراء الذى خبر فيها بنفسه كل كثيب وبئر ، وكل ذرة رمل وحجر ، كل حيوان يدب أو يمشى ، كل طيف من أطياف ألوانها البديعة ، الشروق والغروب ، كل دمدمة للجن فيها ، وكل دوى وصفير للريح . ولما زرته فى بيته وجدت فى حديقته داخل أقفاص أنواعا من حيوان الصحراء ، كالظبى والقنفذ والسحلية .. وهو داخل المدينة لا يستغنى عن الصحراء .

أعترف لك أمام جاسوس ! - أتطلع إلى الضوء وصوت التايبريتر وأنا معجب بهمته أشد الاعجاب ، متحسر ، لا على نفسى وحدها بل على كل أبناء المدارس أمثالى الغارقين فى الجهل والكسل والتراخى والتواكل .. وخليها على الله .. وكنت أتخيل بدافع من اشتياقى أنه يؤلف كتابا عن الصحراء ولا يكتب تقريرا للمخابرات .

وقد اشتريت كتابه الذى ألفه من اجتيازه لصحراء الربع الخالى ، وأعترف لك أنى عجزت عن قراءته لأنه محشو بألفاظ من علم طبقات الأرض ، فيه وصف لتركيب كل حجر وكل صخر مر به ، فيه وصف مستفيض للألوان وذوق أطيافها الدقيقة . وأنا - مع الأسف - خريج القسم الأدبى ومدرسة الحقوق ، لم ألقن طوال

السنين التى بقيتها فى المدارس كلمة واحدة تفتح عينى على أسرار الأرض التى نعيش فوقها ، أو يبصرنى بالألوان وفروقها . جميع الألفاظ التى استخدمها فيلبى لا أستطيع أن أترجمها الا بكلمة واحدة هى حجر أو صخر . وقفلت الكتاب وأنا أتحسر مرة أخرى على نفسى وعلى جميع أبناء المدارس أمثالى .

نحن العرب المسلمين لا نعلم شيئا عن الجزيرة العربية ، والذى نقرأه فى الشعر الجاهلى نقرأه وعيوننا عمى ، ويجئ رجل من بلاد الضباب ، لا لغتنا لغته ، ولا ديننا دينه ، فيجوب هذه الجزيرة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، لا يبالى بالأهوال والأخطار ، ثم يسجل كل ما يراه ، وينشره للناس ، وهو عالم أن الذين سيقرأون كتابه من المتكلمين بالعربية قلة تعد على أصابع اليدين ، والذين سيفهمون منهم ما يقرأون قلة تعد على أصابع اليدالواحدة .

بسبب فيلبى كانت جدة عندى حرا جهنما وذبابا ورطوبة وبعوضا ،، وتحسرا لا ينقطع .

(« المساء » ، ١٢ / ٨ / ١٩٦٣ ، ص ٨)

مناكفات .. وصغائر

أتابع ذكرياتى عن سانت جون فيلبى أو الحاج عبد الله فيلبى الذى جدد ابنه الصحفى – الرجل الثالث – بهروبه أخيرا من بيروت إلى موسكو تقاليد الأسرة فى الارتباط بالشرق العربى وحب المغامرة والمناكفة والعمل من وراء ستار .

وقد حدثتك من قبل عن لقائى بالأب فى جدة سنة ١٩٢٩ ، ووصفت لك هيأته ولحيته الوهابية وبلعه بسهولة – وهو الغريب القادم من بلاد الزمهرير – لجو جدة الحار الرطب الذى يقف فى حلقنا – نحن أبناء زمتة النيل – فيكاد يخنقنا . وكيف كان يحتمل وحدته بعيدا عن الزوج والولد كأنها خف الريشة وهى عندنا أطنان من حديد ، من أجل أن يفرغ دوننا ، وهو فرح منطلق ، إلى غرض كالسهم ، لدراسة بلادنا التى نجهلها فى الجزيرة العربية ، والالمام إلمام خبير بأحوال أهلها ، خدمة للامبراطورية البريطانية ، واعلاء من شأن الاستشراق فى أمته .

كانت شهرته أنه مستشار أو صديق للملك المرحوم عبد العزيز آل سعود ، ولو أننى لم أسمع خلال اقامتى سنتين بالحجاز عن

لقاء معلن بينه وبين الملك . ولا أظن أنه كان يقابله سرا . والغالب أن شهر العسل بين الاثنين كان قد انقضى . كان لفيلبى دوره ونفعه وقت أن كان عبد العزيز آل سعود فى غياهب نجد ، يحتاج أن يكون بجانبه رجل انجليزى ، فيدرك الأمير بفطنته من أين تهب الريح ، وإلى أى مدى يجوز له أن يمد قدمه ، وان لم يفصح له فيلبى عن الحقيقة كلها .

ثم أصبح الأمير ملكا على نجد والحجاز ، وأطل عرشه على البحر ، واستتب سلطانه ، فأصبح الاتصال بينه وبين انجلترا عن طريق ممثل معتمد لانجلترا يقيم فى جدة ، وعن طريق الشيخ حافظ وهبة مندوب الملك فى لندن . والشيخ حافظ وهبة من أبناء مصر ، وقد نشر ترجمة حياته قريبا - ولا أنسى إلى اليــوم لقاءنا أول مرة على ظهر الباخرة تالورى التى حملتنا نحن الاثنين إلى جدة فى مطلع سنة ١٩٢٩ .

فأصبح يصدق على فيلبى وصفه بأنه « محارب » من المرتزقة ، وهذا الصنف من المحاربين ينظر اليه الجندى المحترف بنوع من الاستخفاف والازدراء ، فكانت القنصلية الانجليزية فى جدة تتجاهل فيلبى ، وكان فيلبى يتجـاهلها ، بل يعمـل أحيـانا على مناكفتها - كما سترى - كل هذا فى الظاهر ، فلم يكن ينطلى على أحد زعم الجانبين أنهما فى مباراة لشد الحبل ، كل منهما يجذبه لناحيته ، بل كنا نحس أن الجانبين رغم اختلافهما الظاهر يشدان

الحبل معا إلى ناحية واحدة هى لندن ، بل كنا نحس أن التجاهل المتبادل بينهما خطـة ، ان لم تكن موضوعة عن عمـد ، فهى وضـع براجماطيقى نافع لا بأس من تدعيمه والابقاء عليه . ففيه تبييض لوجه فيلبى عند أهل البلاد ورفع لسوء الظن به ، فلعلهم يأمنون له ويفتحون له قلوبهم ويعتبرونه واحدا منهم لا واحدا عليهم .

انظر كيف كان فيلبى يناكف القنصلية الانجليزية .

تسلمنا فى قنصليتنا ذات يوم نسخة من كتاب دورى موزع على جميع القنصليات تقترح فيه القنصلية الانجليزية علينا انشاء ناد يضمنا جميعا ويكون وقفا علينا . لعل قنصل انجلترا كان يفتقد ناديه فى لندن ، يدخل فيجد منضدة عليها كوم من الصحف ، ومقعدا فى ركن يدخن فوقه بيبته . ان شاء جلس صامتا لا يضايقه أحدا ، وان شاء قام إلى من أحب ليبادله حديثا خفيفا ، أو ربما استهوته فكرة ربط موظفى القنصليات برباط الأسرة الواحدة ، تخفيفا من وحدتهم فى جدة .

وأعترف لك بلا خجـل أننا تلقينا هذا الكتاب الدورى بفرح شديد وتمنينا أن تتحقق الفكرة ، وحمدنا فى سرنا للقنصل الانجليزى أنه لم يشأ أن يجعل هذا النادى وقفا على القنصليات الأوربية (فرنسا . ايطاليا . هولندا) وأنه تكرم وتنازل وشمل بعطفه قنصليتى تركيا ومصر . (لم يكن لبلد اسلامى آخر ممثل

في جدة ، اللهم الا ايران ، فقد كان لها قنصل فخرى من أهل البلاد . من أذكى أهل البلاد . بفضله عرفت لأول مرة شيئا عن البهائية وتاريخها ومدى انتشارها) .

وكنا نحس في ورود هذا المنشور أن السلك القنصلى ينقسم إلى معسكرين : معسكر أوربى ومعسكر شرقى . الأول يستعلى على الثاني وينظر اليه بشئ من الاستخفاف . وقد غضبنا فى سرنا ذات يوم حين دعانا قنصل هولندا لتناول الغداء على مائدته ، فوجدناه لم يدع معنا الا قنصل ايران الفخرى ، كأنه لم يجدنا أهلا لأن نجلس على مائدته مع ضيوف من الأوربيين .

فرحنا بالكتاب الدورى ، ولم يبق لنا من هم الا أن نسأل : ترى كم تبلغ قيمة الاشتراك فى هذا النادى .

وبعد يوم وأحد زارنا فيلبى وهو محنق هائج ، وقدم لنا صورة من كتاب دورى وزعه هو الآخر على جميع القنصليات ، يحذرها فيه من جعل هذا النادى وقفا على السلك القنصلى وحده ، ويطالب بشدة أن يفتح أبوابه أيضا لأهل البلاد ، لأهل الحجاز ونجد ، لأننا نقيم فى بلادهم ولا معنى لأن نغلق باب هذا النادى فى وجوههم . انه يكره هذا الاستعلاء البغيض .

سبحان الله ! لم يجئ الدفاع عن أهل البلاد من ممثل مصر أو تركيـا أو ايران ، بل من سانت جو فيلبى ، أو الحاج عبد الله

فيلبى . هل غاظ فيلبى أنه لن يدخل هذا النادى لأنه ليس موظفا باحدى القنصليات فقال : فيها لاخفيها ؟

لا أدرى .. على كل حال أعترف مرة بلا خجل أننى شعرت بشئ من الحقارة والامتهان لنفسي لأننى خلبتنى الصغائر ، فسارعت إلى الفرح بفكرة هذه النادى دون أن أنتبه - كما انتبه فيلبى - إلى المعنى الذى قذف به فى وجوهنا .

وهكذا حين أراد قنصل انجلترا أن يفتح علبة النادى قفز له من داخلها عفريت اسمه فيلبي .. فأغلقها ورماها ، وقال : توبة من دى النوبة .

ولم تقتصر مناكفة فيلبى على الحجاز ، بل امتدت إلى مصر حين عبر لأوربا ذات مرة . طلب اليه فى السويس أن يدفع رسما مستحقا لادارة الكورنتينات ، فرفض الدفع ، وقال ان هذا الرسم ضريبة تجبى فى مصر ، فأرونى أولا القانون المصرى الذى فرضها .

والواقع لم يكن هناك قانون مصرى يفرض هذه الضريبة - اذ كانت ادارة الكورنتينات منظمة دولية ، هى فى مصر - كقناة السويس - حكومة داخل حكومة . وكان الغرض منها فرض حصار على جماعة الحجاج إلى مكة ، لا يقل عن حصار المرضى بالطاعون والكوليرا .

وقد دفعتنى مناكفة فيلبى للكورنتينات على أن أدرس أنظمتها وأضع عنها بحثا طويلا نشرته فى مجلة « الرابطة الشرقية » حملت فيه على نظام يسمح بمرور الأوربى المقيم فى جدة دون حجزه فى الحجر الصحى ، أما اذا كان المسافر مسلما ، فسواء أحج أم لم يحج ، وربما كان جارا ملاصقا لهذا الأوربى ، فلا يسمح له بالعبور من قناة السويس الا بعد قضاء فترة من الحجر الصحى فى الطور .. كانت القاعدة عند الكورنتينات أن كل أوربى نظيف وكل مسلم قذر موبوء .

وكنت أرى بعينى وأنا صبى جماعة الحجاج القادمين من الغرب المنكسرين والغلابة ، وهم يساقون كالأنعام ، وقد أحاط بهم حرس من البوليس والكونتينات . كأنهم مباءة أمراض فظيعة .. يحدث لهم وهم فى طريقهم إلى الحجاز ، فتصور حالهم عند العودة منه .

ونعود إلى فيلبى فنقول : ومع هذا فقد كان هناك فى الحقيقة خلاف شديد بينه وبين القنصلية الانجليزية يتمثل فيه خلاف عجيب متوارث فى الدبلوماسية الانجليزية فى الشرق بين طاقم الحكومة الهندية ، وطاقم المكتب العربى فى المخابرات البريطانية - كما سأرويه لك فى المقال التالى .

(« المساء » ، ٢٦ /١٩٦٣/٨ ، ص ٨)

بين الروبية وريال تيريزة !

قابلت الروبية أول مرة وأنا صبى بالمدرسة الابتدائية وقت أن وفد على بلدنا فى مطالع الحرب العالمية الأولى حشد من الجنود بين ملتح وحليق ، فوقر فى نفسى أن عقلية الهنود من العقد الشائكة ، فلم أفهم حينئذ لماذا أرادوا للروبية أن لا تساوى الا ستة قروش ونصف قرش مصرى . ودعوت الله ألا يخطر على بال هذا الطاغية الذى يعلمنا الحساب - بالضرب ! -حتى لا يدخلها فى مسائل « رجل باع واشترى » .

وقابلت ريال مارى تيريزة أول مرة وأنا فتى أعمل فى قنصليتنا بجدة سنة ١٩٢٩ . حقا انه ريال متميز على وزن مبعجر ، ضخم كأنه الرحى . هو النقد المفضل حينئذ لدى جميع سكان الجزيرة العربية ، وهو ليس عملة رسمية تنفرد الحكومة بسكها وتعاقب على تقليدها ، بل هو عملة حرة . قيمتها هى قيمة الفضة التى تحتويها . فيستطيع كل صيرفى أن يسكها أينما شاء ثم يحملها للحجاز ونجد للتعامل بها . لا مثيل لها فى أى بلد آخر . فلا يعرف ريال مارى تيريزة الفرق بين جوانى وبرانى . (بعد استسماح الدكتور عثمان أمين !) .

وكما لخفنتنى الروبية فى الحساب لخفنى هذا الريال ، اذ كان ثمنه حينئذ ٢٣ قرشا مصريا .. سمى بذلك لأن على أحد وجهيه صورة مارى تيريزة النمساوية امبراطورة ألمانيا وملكة المجر وبوهيميا (١٧١٧ - ١٧٨٠) . ولم أعرف حتى اليوم سر تداول هذه العملة فى الجزيرة العربية وحدها بعد أن بطل تداولها فى النمسا ذاتها منذ أجيال بعيدة . وكان هذا الريال العجيب كافيا للدلالة بنفرده على هبوط مستوى المعيشة عند متداوليه ، فلو ملك واحد منهم ألف ريال لاحتاج إلى جملين لحملها .

هذه المقدمة النقدية لابد منها لأنها خير مايعكس أنقسام السياسة البريطانية فى الشرق حينئذ إلى منطقتين : منطقة الروبية (الهند والبلاد العربية الواقعة على الخليج . وقد يدخل فيها العراق أيضا) ، ومنطقة ريال مارى تيريزة (بقية بلاد الصحارى فى الجزيرة العربية) ، فكان لكل منطقة رجالها المتخصصون .لكل من الفريقين عقليته ومزاجه . فريق الروبية أوثق صلة بالجيش . يهيم بالاستعراضات العسكرية . يتجمع حول نائب ملك يحكم الهند كامبراطور منفوخ . يصف الراجات أمامه وتحته ، وقد زينوا بالحلى أيديهم وأرجلهم وآذانهم ، كأنهم مسوخ فى سيرك . رجال هذا الفــريق عمليــون ، حلولهم جذرية ، منتصــفة بالاســتعلاء . لا أحلام لهم . همهم الأوحد الاغتناء وجمع المال للعودة إلى بلادهم بعد التقاعد ليعيشوا مع أمراضهم معيشة الأثرياء . الفروق بين

الأجناس عندهم محددة بالحبر الأحمر ، لون العلم البريطانى ، والإنجليزى سيد السمر والسود علنا ، والبيض أيضا فى قرارة نفسه . الخبرة السياسية المطلوبة منهم هى التلاعب بالفروق بين المذاهب والأديان .

أما فريق ريال مارى تيريزة فأمره عجيب . شبان أذكياء يتخرجون فى أرقى الجامعات ، اللغة اللاتينية والإغريقية حشو جعبتم الثقافية . ولسبب خفى يهمون بالشرق فيداعب أحلامهم . هو عندهم بلاد السحر ، فيترجمون كلمة السحر بكلمة السياسة ويتطوعون لخدمة الامبراطورية البريطانية فى البلاد العربية . فى أذهانهم أحلام عن دسائس ومؤامرات ومغامرات كأنها قصة بوليسية . رحلات سرية عبر الصحراء على ظهور الجمال . أخطار بالليل . فيهم من يأفل نجمه أو تنتهى حياته بعد الخطوات الأولى ، فلا يبقى له ذكر . ومنهم من يبنى له فى نظر قومه مجدا لايقل عن أمجاد أبطال الأساطير ، كما حدث للورانس .

ليس بين فريق الروبية من يلبس زى الهنود . أم رجال فريق ريال مارى تيريزة فيهيمون بلبس العقال . ربما أيضا اعتنق بعضهم الأسلام ولو فى الظاهر كما حدث لسانت جون فيلبى أو الحاج عبدالله فيلبى ، ولو أنه فى حقيقة الأمر من فريق الروبية رغم نشاطه فى نجد والحجاز .

هذا الفريق لا يتظاهر بالاستعلاء ، بل يتصنع الوقوف وقفة رجال الحاشية من الأمير العربى الذى يدخل فى مصيدته ، رسائلهم المتبادلة بينهم مملوءة بمقتبسات من الأدب الاغريقى واللاتينى ، مكتوبة برشاقة وأجمل أسلوب .

وأحب أن تعرف أن اللورد كرومر كان له أسلوب أدبى ممتاز ، يمثل العصر الفيكتورى . تقرأه اليوم مثلا فى كتابه عن عباس الثانى فتعجب بشدة أناقته ولكنك تحس أنه أسلوب أكل عليه الدهر وشرب .

هذا هو فريق مخابرات المكتب العربى الذى بسط نفوذه على البلاد العربية ، وبلغ ذروته ابان الحرب العالمية الأولى وأعقابها . فريق لورنس ، ورونالدسفورز ، وكلايتون ، وشكسبير (هكذا كان اسمه) . كان كل واحد منهم فى حقيقة الأمر ملكا متوجا ، ولكنهم بنوا عن عمد شهرة لورنس ، ليكون نجمهم المتألق ، الذى يجدد ذكرى زعيمة هذا الفريق - اللادى ستانهوب - التى كانت تعيش معيشة الملكات فى جنوب ولاية سوريا فى أواخر الامبراطورية العثمانية.

وقد بلغ من مجد هذا الفريق فى نظر الانجليز أن مستر تشرشل نفسه كان يحب دائما أن يزج بنفسه بينهم .. ولم لا ؟ انه أيضا صاحب أسلوب زخرفى ، يعشق الأناقة .

ولم تكن الخبرة المطلوبة من هذا الفريق هى التلاعب بالفروق بين الأديان والمذاهب كما هو الحال فى فريق الروبية ، بل كانت تتمثل فى القدرة على اثارة الأطماع والحزازات بين أمراء الجزيرة العربية . لذلك كان المطلوب منهم أن يدرسوا طبائع الانسان ومكامن ضعفه ، ومن هنا كانت صلتهم الوثيقة بالأدب والتعبير الفنى .

ويخيل إلىّ أحيانا أن النزعة المسيحية تكمن وراء هيامهم بالشرق ، ففى الكتب التى قرأوها وهم صبية عن حياة السيد المسيح والقديسين صور لرجال فى زى البدو . وفى الجزيرة العربية ولد المسيح ، وهاجر وجاهد ، ولقى ربه .. أسماء مثل الناصرة وبيت لحم والجلجثة متغلغلة فى قلوبهم ، توحى لهم بشعور مختلط بالحب والرهبة والتعجب . فليس من الغريب قولهم ان سر جاذبية الملك فيصل الأول ، كانت ترجع إلى أنه شديد الشبه بالسيد المسيح ، كما يبدو فى لوحات المصورين .

ولكن اياك أن تنسى أن المجد الذى بناه هذا الفريق فى نظر شعبه لم يكن راجعا إلى كفاءة فردية ممتازة فحسب ، بل لأن وراءه هيبة الامبراطورية البريطانية وثراءها وقوتها وأسطولها . وكتبت صحيفة « المقطم » - صحيفة الاحتلال - توهم قراءها أن وصف بريطانيا بالعظمى هو دلالة على عظمتها ، وأنها لا تقهر ، مع أن هذا الوصف هو فى الحقيقة وصف جغرافى يراد به تمييز الجزر

البريطانية من مقاطعة بريطانيا الفرنسية ، فالجزر البريطانية أكبر ولذلك سميت بريطانيا الأكبر ، لا العظمى ، فهذه هى الترجمة الصادقة لكلمة « جراند بريتاني » أو « جريت بريتان » .

فلم يكن يخلو متاع واحد من فريق المكتب العربى الانجليزى من صفائح بنزين مملوءة بالذهب أو بريال مارى تيريزة ، ليوزعها يمينا وشمالا . حقا أن بعض الذهب كان فى بعض الأحيان مغشوشا ، فالسياسة البريطانية لا تتورع عن التزييف ، بل عن القتل أحيانا . فالمستر بالمر الذى رشا بدو صحراء سيناء ، تمهيدا لحرب عرابى لم يوزع عليهم إلا جنيهات زائفة ، وإن كان لونها لون الذهب .

إن أردت أن تعرف مثلا للدور الذى لعبته الجنيهات الانجليزية فى بناء مجد هذا الفريق فاقرأ خطابات المرحوم الملك حسين إلى المستر ماكماهون .. ثلاث أو أربع صفحات مكتوبة بأسلوب عرقوبى لا تفهم أوله من آخره ، لكن كل رسالة تنتهى بسطر واضح كل الوضوح ، التعبير فيه مباشر بلا لف ولا دوران .. اسعفونا بالفلوس .. فالذى وصله لا يكفى .

وإن قرأت وصف خروج الملك حسين من بلاده أمام الغزو الوهابى رأيت بقية هذه الفلوس لا تزال موضوعة فى صفائح بنزين أخذت طريقها إلى قبرص . دبر الانجليز خلعه بالغزو الوهابى ، لطى صفحة وعودهم الكاذبة له باستقلال الجزيرة العربية تحت

إمارته . ولكن هل تظن أنهم أعطوا الحجاز لقمة سائغة للملك ابن سعود . كلا ، إن الملك على وقع على ظهر السفينة التى أقلته هو أيضا خارج بلاده على معاهدة يتنازل فيها الحجاز لشرق الأردن عن ميناء العقبة . مثل هذه الخبطات السياسية هى دعائم مجد فريق المكتب العربى الانجليزى .

لم يكن المال وراء هذا الفريق فحسب ، بل كان هناك أيضا الأسطول البرطانى (قبل اختراع الطائرات وإلقاء القنابل الحارقة على القبائل الثائرة) ، وكان يحق لانجلترا حينئذ أن تسمى البحر الأبيض « بحرنا » ، وكثرت فيه بعض بوارجها الكبيرة . أنه أصبح بحيرة انجليزية بعد احتلالها لجبل طارق ومالطة وقبرص وقناة السويس . أما البحر الأحمر الغلبان فهو فى نظرها طست نحاس ، هو بحر عربى ، بدليل أن شكله شكل جلابية بكمين منشورين على حبل بعد غسلها « فمين » فى هذا الطست النحاس . لذلك لم ترسل له إلا بارجة صغيرة زعراء ، كأنها لعبة طفل تجر بحبل فى هذا الطست . كان يكفى أن تظهر هذه البارجة أمام أى ثغر عربى حتى يتحقق لرجال المكتب العربى تنفيذ سياستهم بلا حاجة إلى فرط ذكاء أو إحكام الدسائس . وأعتقد أن مدافع هذه البارجة لم تطلق مرة واحدة . ولولا تعليمات البحرية البريطانية وإشغال البحارة أوقات فراغهم فى تلميع الأحذية والمدافع لكان الصدأ قد علا سلاحها الأخرس .

من حسن حظى أن مشهد هذه البارجة لم يفتنى ، فقد رأيتها راسية أمام جدة ذات يوم أثناء إقامتى بها .. ويحزننى أننى نسيت اليوم اسمها .

وكان الانجليز يزعمون أن سياستهم فى الشرق هى سياسة يد من حديد داخل قفاز من حرير ، والواقع أن القفاز كان من الحديد أيضا . هو أحيانا حديد خردة تصنع منه مثل هذه البارجة الهزيلة .

كل هذا المجد طواه الزمن إلى غير رجعة . انتهت الهالة التى كانت تحيط برأس لورنس وأتباعه . ولكنها كانت لا تزال تتألق وقت إقامتى بجدة سنة ١٩٢٩ . كان طاقم القنصلية الانجليزية فى جدة يأتم بمدرسة لورنس ، منطقة ريال مارى تيريزة . لذلك لم يكن من العجب أن ينظروا نظرة متعالية إلى سانت جون فيلبى ، أو الحاج عبد الله فيلبى ، لأنه فى الأصل من منطقة الروبية . كما سأتحدث فيما يلى .

(« المساء » ، ١٩٦٣/٩/٢ ، ص ٨)

دروس وذكريات

من حسن حظى أننى تلقيت وأنا لا أزال غشيما فى الكار من رجال القنصلية الانجليزية فى جدة – وكلهم من خريجى كامبردج أو اكسفورد – حين نزلتها سنة ١٩٢٩ . درسا نفعنى طوال مدة خدمتى المديدة بوزارة الخارجية . أنه درس لا تجده فى الكتب . ولم ينبهنى إليه أحد من رؤسائى قبل سفرى من مصر . ولكنه على ضآلته شديد النفع لأنه كفكف من نفختى وغلوائى واعتزازى بالحصانة الدبلوماسية التى تمنح لرجال السلك الدبلوماسى . المسافرون من بقية خلق الله تبعثر حقائبهم فى الجمارك ونحن نمرق مروق السهم بين التحيات والابتسامات . أشياء كثيرة ممنوع استيرادها ، أو إذا سمح باستيرادها بيعت بأثمان مرتفعة للأهالى (مثل السجائر والخمور والأقمشة الفاخرة) أما نحن فنشتريها رغم كل القيود بأبخس الأثمان ، بل من عجب أن شركات السيارات تمنح رجال السلك الدبلوماسى تخفيضا لا يفوز به أحدغيرهم ، بل يبلغ الأمر أنه إذا دهست هذه السيارة إنسانا فإن صاحبها لا يقدم للمحاكمة ، بل غاية ما يحدث له أن يعاد لبلده . بأمر من دولته ، وقد

شهدت فيما بعد حكومات كثيرة تغمض عينيها على تعامل رجال السلك الدبلوماسى فى السوق السوداء وهو جريمة يعاقب عليها قانونا . حقا أنه إغراء شديد لضعفاء النفوس ، المنفوخين نفخة كذابة من رجال السلك الدبلوماسى ليروا أنفسهم فوق القانون وأن يباح لهم الاستخفاف به .. وكان من قوانين الحكومة السعودية حينئـذ تحـريم تدخين السجائر فى الطـريق العـام ، وحق رجال « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » سوق السائرين غصبا إلى المساجد إذا نودى للصلاة فكان أول أثر لهذين القانونين على نفسى أننى ثرت عليهما . وتمسكت بحق التمتع بحصانتى الدبلوماسية ، ولكنى رأيت رجال القنصلية الانجليزية يحرصون على إلقاء سجائرهم إلى الأرض قبل خروجهم من باب القنصلية ، ولو خرجوا بها ونفخوا الدخان فى وجوه الناس لما تعرض لهم أحد ، ولكنهم لا يرضون المجاهرة بخرق القانون . ورأيت أغلبهم يطلقون اللحى اتباعا منهم لسـنة أهل البلاد . ولكن خضوعهم لهذه السنة هو من قبيل الدلع أيضا لا الاحترام وحده . يحبون أن يضحكوا وهم يرون أنفسهم فى المرآة ، وأن تثير صورهم الفوتوغرافية ابتسامات أقاربهم البعيدين .. وكان من مزاجهم إذا سأل أحدهم سائل – كم لك فى جدة ؟ أجاب – ثلاث لحى .. بدلا من قوله ثلاث سنين مثلا .

تعلمت أن الحصانة الدبلوماسية لا تعنى الاستخفاف بالقانون .

المحلى . بل تعنى أن يكون الممثل الدبلوماسى أشد الناس حرصاعلى احترامه . فبقدر الحقوق تكون الواجبات .

أما مع سانت جون فيلبى أو الحاج عبد الله فيلبى فكنت إذا قارنته برجال القنصلية الانجليزية - مع أنه مثلهم من خريجى كمبردج - أجده مثالا غريبا للجرأة التى تبلغ حد البجاحة ، إن نظرته لا تنكسر .. ولسانه حاد قاطع . أقمنا حفلة لتوديع رئيسنا وهومن خريجي أكسفورد . فإذا بفيلبى يقول له أمام الجميع . ليس فيك علامة واحدة تدل على أنك درست فى جامعة انجليزية ، كذلك كان شأنه فى بيته .. مخلوع العذار لا يخشى النقد ، مجاهرا بما يخفيه غيره ، وكانت مهنته الظاهرة حينئذ اشتغاله بالاستيراد . وقد زرت معه شركته وأطلعنى على الآلات الميكانيكية التى تركب على الآبار العميقة لجر مياهها ، وكانت عبارة عن سلسلة متصلة إذا تحركت من أسفل إلى أعلى نزحت معها الماء من عمق البئر إلى سطحه . وكنا نعلم أن الملك عبد العزيز آل سعود يفكر فى تنفيذ مشروع يقضى بإسكان البدو فى مناطق قابلة للزراعة لينشئ فى الحجاز مجتمعا زراعيا مستقرا يتحرر من الغزوات والهجمات المتبادلة بين قبائل البدو . ولاشك أن الحاج عبد الله فيلبى كان من أكبر المروجين لهذا المشروع .. كانت المشكلة فى الحجاز هى مشكلة الماء . نحن فى جدة نشرب إما ماء لا طعم له . تقطره لنا الكنداسة ، وتباع

الصفيحة الواحدة بقرشين وثلاثة ، وإما ماء عكرا مستخرجا من الصهاريج الأرضية التى تحفر فى طريق السيل المنحدر من الجبل إلى البحر . وكانت ثروة بعض الأغنياء تقاس بعدد ما يملكون من هذه الصهاريج .

لم يكن عصر البترول قد أشرق بعد ، ومع ذلك فمن عجائب الحوادث فى حياتى أننى شهدت مبادئ أول محاولة سرية للكشف عن البترول فى المملكة السعودية ، ففى الباخرة تالورى التى أقلتنى إلى جدة فى مطلع سنة ١٩٢٩ لقيت رجلا هولنديا ليس من اليسير على من يراه أول مرة أن ينساه بعد ذلك ، له وجه شديد الاحمرار ، مستدير كأنه مرسوم بالبراجل وعلى عينيه نظارة غامقة هيهات أن تخفى خبث نظرته . أنه فاحش الثراء ، ويقيم فى جدة . وقد أشهر إسلامه ، وتزوج من سيدة فاضلة من أهل جدة ، فإذا به يأخذنى على جنب ونحن لم نتعارف بعد معرفة وثيقة ويطلب منى سرا أن أضع جهازا له بين أمتعتى ليخرج من الجمرك السعودى بدون رقابة . وقال لى أنه جهاز معد للكشف عن البترول . وأن إدخاله للبلاد غير محرم ولكنه يخشى أن يعبث به رجال الجمرك فيفسدوه . وقد وقعت فجأة فى حيص بيص ، وحرت ماذا أفعل ، وكان خليقا بشاب غر مثلى أن يستجيب لهذا الرحالة ، ولكنى لحسن الحظ أنفت أن يستغلنى هذا الرجل مثل هذا الاستغلال السخيف ، فرفضت طلبه .

وهكذا أستطيع أن أشهد أن الكشف عن البترول فى السعودية بدأ سرا فى سنة ١٩٢٩ أو قبلها بقليل .

ونعود الآن إلى الحاج عبد الله فيلبى لأختتم بسرد سيرته حديثى عنه الذى طال أكثر مما ينبغى .

ولد فيلبى فى جزيرة سيلان سنة ١٨٨٥ أى بعد أن وصلها عرابى باشا بثلاث سنوات . وهكذا شاء له القدر أن يولد فى مستعمرة يحكمها التاج البريطانى ، وينفى إليها كل من ثار ضد الامبراطورية . فرضع مع لبن مرضعته حبه وهيامه بهذه الامبراطورية وشاء له القدر أيضا أنه يكون دائما غريبا غير متآلف مع الانجليز المولودين فى انجلترا .. ولما بلغ الثامنة من عمره سافر لانجلترا للالتحاق بالمدارس ثم تخرج فى جامعة كمبردج . وبعد أن نجح فى امتحان دخول وظائف الحكومة عين فى إحدى الوظائف الإدارية بمقاطعة كشمير بالهند فأتقن تعلم اللغة الهندستانية والعربية . ولما اندلعت الحرب العالمية الأولى ظل بالهند إلى سنة ١٩١٧ حين أوفدته حكومته إلى الكويت ليكون حلقة الوصل بينها وبين الأمير عبد العزيز آل سعود وهو يرقى سلم المجد خطوة خطوة . وهكذا نشأت بينهما تلك الصداقة والعلاقة المتينة التى استمرت إلى وفاة الأمير وهو ملك على نجد والحجاز والعسير أيضا .. الجواد الذى راهن عليه فيلبى هو الذى فاز أما الجواد الذى راهن عليه لورنس فقد خسر وخرج من الميدان .. ولكن نجم فيلبى مع ذلك لم يسطع سطوع نجم لورنس .

وورثه الملك سعود ضمن تركة أبيه الراحل ، فأبقاه فى الحجاز ولكن أغراض السعوديين من فيلبى كانت قد انقضت بعد توطد العلاقة الرسمية بينهم وبين الحكومة الانجليزية .

ولسبب ما لم ينكشف سره بعد . صدر يوم ١٧ أبريل سنة ١٩٥٥ بلاغ من الديوان الملكى بمكة يعلن أن الحكومة السعودية طلبت من المستر فيلبى - لا من الحاج عبد الله فيلبى - من كبار رجال الأعمال مغادرة البلاد وأن جلالة الملك سعود تفضل بمنحه الأملاك التى كانت له فى البلاد . وقال البيان : أن المستر فيلبى أقام مدة طويلة فى المملكة السعودية كان خلالها موضع الرعاية والإعزاز ولكن الحكومة لاحظت فى السنوات الأخيرة أنه أخذ يتجه اتجاهات غير لائقة بالرغم من تحذيره عدة مرات ، فاضطر جلالة الملك أن يتخذ معه أسهل ما يمكن من الاجراءات ، لصداقته السابقة مع جلالته ، واكتفى بأن يطلب منه الخروج من البلاد دون أن يغمطه أى حق .

لم يذهب فيلبى إلى انجلترا . أنه سيعيش غريبا بين أهله .لذلك بقى فى لبنان إلى أن مات فى أول أكتوبر سنة ١٩٦٠ بمدينة بيروت .. بيروت التى غطس فيها ابنه الصحفى فيلبى سنة ١٩٦٣ ثم قب فى موسكو .. وهكذا كانت بيروت حلقة الوصل بين سيرة الأب والابن .

(« المساء » ، ١٩٦٣/٩/٩ ، ص ٨)

يوم الحشر على الأرض

أكتب مذكراتي عن الحجاز (١٩٢٩ - ١٩٣٠) وأظل ألف وأدور على الأطراف النائية ، كأنني أهرب وأنا خائف من الوصول إلى قلب المعمعة فى هذا اليوم المهول ، ولكننى أعلم وفى دمى مس من القشعريرة التى تسبق الحمى العائدة أن وصفه لابد آت ، فلا معنى ولا طعام لبقية الأيام دونه ، بل لا وجود للحجاز حينئذ لولاه ، يوم تختصر ساعة من ساعاته عمر ١٥ قرنا وأكثر وتأرجح وجدان أمة عريقة عالمية ، بأشواقها وأشجانها .

إنه وعاء صغير فى حساب الزمن ولكن سيل العواطف التى صبت فيه وحده طوفان يغرق الدنيا ويفيض : الدعاء والابتهالات ، الندم والتوبة ، بالتمتمة والجهر ، الدموع التى غسلت القلوب ، الوجد الذى قلقل أصحابه من كل فج عميق ، من أقصى الشمال والشرق إلى أقصى الجنوب والغرب .. لافح لأنه يوم الوقوف بين يدى الخالق ، ندى لأنه يوم الأخوة بين البشر .

إننى فى حاجة لكى أصـــفه إلى أن تتحفز أعصابى فى اتقاد لا يقف إلا على قيد شعرة من حد التمزق والهلاك .. أن تنفك من أغلالها لتقوى على التحليق .. أن تتلبسنى كل شياطين عبقر .. أن

تفضى إلى اللغة بمكنونها الضنين .. أن تهبط على مجنحة خفى الألفاظ والمعانى ، يسوقها الحب .. أن ترفرف حولى وتوشوش لى بالسر فى أبهى صورة ، لا تترفق بى هذه العاديات ، بل تفترسنى وتنهش قلبى ، ولكن هيهات ! إذن فكل الذى يخرج من أحسن طوقى لن يكون إلا كاللون الباهت ، أو الصوت المحشرج الذى يكاد لا يبين .

إنه يوم ٩ من ذى الحجة ، وقفة عرفات : ملايين من الخلق تكفنوا وهم أحياء ، أرواحهم مشعشعة ، وأبدانهم مشدودة كالقوس . وجوههم وأذرعتهم مرفوعة إلى السماء ، ترجهم فرحة اللقاء والعشم فى وجه الله ، فى صدق الوعد ، لا يمتلئ الجو - لا قط ولا أبدا امتلاءه هذا اليوم بزئير آدمى بطلب الرحمة .

إنه يوم الحج ، بروفة من هذه الدنيا ليوم الحشر فى الآخرة . فإذا انفض الجمع مع غروب الشمس بقيت على الوادى أكداس هائلة من أدران الإنسان وهلاهيل ضعفه ، ظنوا أنهم قد تحللوا منها ، فإذا هى لا تزال عالقة بأكفانهم البيض ، يعودون بها إلى معترك الحياة ، تسبقهم فى الدخول إذا رجعوا إلى بيوتهم .. وكيف ينال الرحمة من لا يذنب .

الحمل خفيف على جدة أغلب العام . تتنفس براحة رغم الرطوبة الشديدة لأن الهواء كله لسكانها وحدهم ، كل وجه يعرف

الآخر ، والسحنات متقاربة ، الذباب يتملك سوق البلد ، بعينى رأيت الجزار يكشط بجهد أسرابه اللازقة باللحم بسكينه ليستطيع أن يقطعـه للزبون . القنصلية مضعضعة ناعسة ، لا تستيقظ إلا يوم أن يطـوف المنـادى معلنـا عن قرب قيـام الباخـرة « تالودى » أو « الطائف » ، فمن كان عنده نية سفر ، أو لديه جواب ، أو طرد فأهلا وسهلا به فى مكتب بواخر البوستة الخديوية ، لابد أن نثبت وجودنا فنسهر تلك الليلة فى حشو مظروفين كبيرين ، كل محتوياتها مع الأسف حسابات وجرد مخازن وطلب أجازات .

ليس فى القنصليـة من يركع أو يسجـد ولو مرة بالنهار أو بالليل .. إننى لا أنام رغم الحر الشديد إلا داخل ناموسية وأبلع ثلاثة أقراص من الكينين كل يوم ، اتقاء للملاريا ، البعوض يبرقش حجرتى ، إننى أعلم أن من بينه بعوضة الحمى الصفراء ، ولكن ميكروبها لم يدخل الحجاز لحسن الحظ وإلا لكانت الطامة التى لا سبيل لمقاومتها .

الطباخ الصومالى ، هذا الشاب الوسيم أبو رقبة طويلة ، المفتون بالثياب الزاهية الألوان ، آكل من صنع يده ثلاثة أيام ، ثم أنتظره ثلاثة أيام ، هكذا بالتوالى طوال عامين دون أن يحدث أقل خلل فى الانتظام ، لأنه يرقد كومة من اللحم ترتجف وترتج فى ركن الحجرة من حمى الملاريا ، لو مسه تيار كهربائى لما كانت هزته أخف ، من لقائى به وأنا أحب الصومال وأهله حبا شديدا ، كان

مثالا بديعا للآباء والنخوة والاعتزاز بالنفس - داخل غلاف من البساطة والبقاء على الفطرة .

استمعت إليه بلذة كبيرة وهو يروى خروجه مع الجمال للمرعى فتغيب عن أهله موسم العشب كله ، وجهه وهو يحدثنى يتلألأ بلمسة الهواء الطلق واحتضان الخلاء ، ولا غذاء إلا اللبن والتمر الجاف . كان فى جدة متوحشا ، ولكنه مع ذلك مزهو كالديك حين يخرج مع المساء يتبختر فى سوقها . يخب فى ثياب زاهية الألوان ، وعلى رأسه لفة عمامة ملونة أيضا ، وقد وضع عصاه وراءه على كتفه ودلى من على طرفيها ذراعيه . هذه هى بهجته .

وكان لابد أن يكون أول شئ أراه فى الصباح حين أطل من النافذة . أنه استيقظ مع الفجر قبلى وخرج ليكسب رزقه . الصباح رباح . إنه رجل أصلع بدين يلبس مايوه بيكينى ، لم أره إلا من بعيد . إنه فى قارب من حجم جذع شجرة محفور يدفعه بمدراة يغرز طرفها فى قاع المياه الضحلة فى لسان البحر الذى تطل عليه نافذتى ، ويغرز طرفها الآخر فى الطين ، وكنت أعجب كيف لا تخترقه وتبرز من فوق كتفه ، حتى إذا وصل إلى حيث يريد ترك القارب وغاص فى الماء وخرج يحمل بين ذراعيه وفوق صدره كتلة كبيرة من الطين الأغبر اللزج ، يلقى بها فى القارب فيهتز ، ثم يعود ويغوص ، فإذا امتلأ القارب عاد به إلى الشاطئ وكوم فوقه

هرما صغيرا من الطين ثم تعود المدراة فتنغرز فى إبطه ليستأنف جنى محصوله .

يارب َ يا مقسم الأرزاق . تمنح بعضها من خرم إبرة . هذا الطين أفضل من الأسمنت عند أهل جدة .. ولم أدر كيف كان يباع ، أبالوزن أم بالكيل .

اعتدت الطست لأستحم ، ليس فى الدار مياه جارية ، والبانيو ترف لا نحلم به . ولكن لابد من انتظار السقا ، امرأة من التكارنة ، يأتون من غرب أفريقيا ، فيقطعون القارة سيرا على الأقدام ويعبرون البحر إلى بر الحجاز ، فتخطفهم القبائل وتسترقهم ، فإذا بالحر القادم لبيت الله يصبح عبدا بظلم أهل الأرض التى بها بيت الله .. فإذا وصل الناجون إلى جدة سكنوا فى أطرافها فى بيوت من الصفيح ، ويستعينون على الحياة بتشغيل النساء فى حمل الماء إلى البيوت دون أن يقبل الرجل – فما بالك بالمرأة – امتهان كرامته بالخدمة فى البيوت .

هاهى قد دخلت ، اندلقت ضحكة عريضة على وجهها ، فوق ظهرها طفل مربوط له رأس كالشمامة هاوية إلى ظهره ، وفوق رأسها صفيحة الماء ، قد غاضت فيها أظافرها الخمس . لو دققت لما عشت . هذا الماء يأتينا من الكثافة التى تقطر الماء الحلو من ماء البحر . إنه ماء خال من الأملاح ، لا يتملق فمك ، وكانت زجاجة من مياه فيشى أوافيان تعد فى نظرنا من الفاكهة النادرة .

أما أهل البلد فيشربون من مياه الآبار التى يحفرونها فى طريق السيول ويقيمون على حوافيها سدودا متدرجة فى الارتفاع حتى لا يقع فى البحر إلا زبد الماء دون قاعه المملوء بالحصى والشوائب ، إنه ماء مبيض اللون ، تحاشيت أن أشربه وأنا فى ضيافة بعض أهل البلد رغم إلحاحهم على .

أنت ترى أننى لا أزال ألف وأدور على الأطراف النائية .

ورق • ورق • ورق

كل غربال جديد وله تعليقة . حين بدأت عملى لأول مرة فى القنصلية « أمينا لمحفوظاتها » – هكذا كان اسم وظيفتى حينئذ – لحظت فى الفترة الطويلة التى فيها « التسليم والتسلم » بينى وبين الزميل الذى حللت محله أن وجهه كان يصاب بغم وضيق وهستيريا اذا جاء البريد فوجد معه زكيبة كبيرة حبلى فى شهرها التاسع ، حشوها ورق له خشخشة كالأنين اذا لمستها يد .

كان ينادى « الحاجب » ويأمره بأن يلقيها فورا فى صندوق الزبالة ، فليس عندنا سلة مهملات تتسع لها ، ولا يليق بكرامة القنصلية أن تبيع محتوياتها روبابيكيا علنا أمام الجيران .

ولما سافر وتربعت فى مقعده وتسلمت أول زكيبة قررت – لأننى غربال جديد – أن أفتحها ، فاذا بها مجموعة كاملة من كافة مطبوعات الحكومة . لم تبق وزارة الا لها فيها نصيب يا له من كنز ثمين .

هذه أولا ثلاثة أعداد من « الوقائع المصرية » .. وكل عدد لا يقل عن ٢٠٠ صفحة . انه لا يسجل فحسب كل أعمال الحكومة – فى العاصمة والأقاليم – بل يكاد يعد لها أنفاسها . ففى صدره نص كل ما صدر من قانون أو مرسوم أو ديكريتو أو أمر ملكى ، ثم نص

كل قرار أصدره محافظ أو مدير بانشاء قرافة أو ابطال قرافة ، بتحديد مواقف جديدة لعربات الحنطور وحمير الأجرة ، ثم نص جميع الاعلانات القضائية التى يحار المحضر فى تسليمها لأصحابها لأنهم غائبون أو لأن عناوينهم مجهولة . ويلى ذلك بيان كامل لكل عقار سيباع جبرا ولكل منقول محجوز عليه . من بعدها اعلانات عن قسائم التحصيل (مع ذكر أرقامها) التى ضاعت من الصرافين أو أمناء الخزانة . واذا كان الموسم موسم امتحانات فسنجد بالوقائع المصرية « نمر التلاميذ » فى جميع المواد مع ترتيبهم فى امتحانات الابتدائية والكفاءة والبكالوريا وجميع الشهادات العليا . اذا كان الموسم موسم برلمان فملحق العدد نص كامل لمحاضر جلساته وتقارير لجانه .

بذمتك ، هل يجوز التفريط فى هذا الكنز الثمين ؟ قررت الاحتفاظ به . ومددت يدى وأخرجت « المجلة الزراعية » التى تصدرها وزارة الزراعة . هالنى وأنا أتصفحها ثراء المعلومات المبذولة بالمجان وأحسست أننى كنت أجهل كل شىء عن الطين والزرع . كان هذا شعورى أيضا كلما مددت يدى وأخرجت مجلة أو نشرة . المجلة البيطرية . كأننى كنت أجهل كل شىء عن الجاموس والبقر والكلاب . كيف لا أقرأ هذا البحث القيم عن « الحيوان عند الفراعنة » . لنتركه الى فرصة أخرى .

نشرة الأمراض المعدية فى عموم القطر ، لابد لى من قراءتها

لأطمئن على صحة أهل بلدى . نشرة مصلحة الجمارك عن الصادرات والواردات ، وهى شهرية وموسمية ونصف موسمية وسنوية ، كيف لا أقرأها لأطمئن على ازدهار تجارتنا . نشرة المواليد والوفيات فى الوجهين البحرى والقبلى ، بيانات لذيذة لم تكن تحمل حينئذ وجه بعبع .. ألا أريد أن أعرف أى بلد ضربت الرقم القياسى فى الوأوأة وفى النواح . نشرة ببيان عدد السفن المارة بقناة السويس وجنسية أعلامها ، شىء جميل ، شىء جميل .

رفضت باباء وشمم أن ألقى هذا الكنز – أى هذه الزكيبة – فى صندوق الزبالة . قررت الاحتفاظ بها ، لأقرأها على مهل ، بل كنت أتوقع أن يطلبها منى بعض أعضاء « الجالية المصرية » ليبحث عن شىء يهمه .

وساقنى هذا الحرص الى القاء نظرة الى سلة المهملات ، وجدت بها الأعداد القديمة من « الأهرام » و« الالستراسيون » الفرنسية – وكانت القنصلية مشتركة فيها . وقررت أيضا أن استنقذها من الضياع وأحتفظ بها ، فقد نحتاج الى الرجوع اليها . وكان لابد أن أقيد كل شىء فى « سجل المكتبة » برقم مسلسل ، يتم بمقتضاه جرد هذه المكتبة كل سنة مرة مع ارسال محضر الجرد للوزارة .

بعد شهر واحد امتلأ الدولاب المخصص للمكتبة فى غرفتى . صرفت مبلغا كبيرا لاعداد رفوف داير ما يدور ، امتلأت فى بحر

ثلاثة أشهر . زحفت على بقية القنصلية والدهاليز . وكدت أبلغ بير السلم . كععت القنصلية مبالغ طائلة . ضاق بي الموظفون ذرعا . ثقل دمي عليهم . انشغلت بالتستيف والترتيب ، فلم تبق لي دقيقة واحدة لأقرأ ولو سطرا واحدا فى هذا الكنز الثمين .

لم يأتنى أحد ليطلب « الوقائع المصرية » أو «المجلة الزراعية » . كنت أول الأمر أحس بزهو شديد وأنا أتأمل المكتبة فى حالة النشوء والارتقاء ، ثم بدأ شيء من الوجل يدب فى قلبى . غلبنى شعور قوى حاد بأننى لست أنا وحدى ، بل العالم كله مهدد بجيش يطاردنا ، أو بحر عظيم يزحف ليغرقنا ، بحر من الورق ، هذا هو طوفان العصر الحديث . دمدمة هذا الحر هى من دقدقة ملايين الملايين من كتابى « التيبريتر » ، وهمهمة ألوف مؤلفة من مطابع ضخمة ، تتكاثر كالفطر أمام العين ، لها أشكال الحيوانات البدائية المتوحشة . فى ذهنى صوت نهش وتمزيق بالأنياب لعقول البشر وأرواحهم .

ومنذ حماقتى فى أول قنصلية لم يفارقنى الاحساس بضغط هذا الطوفان على صدرى ، زاد وطأة ، على حين اشتركت فى بعض المؤتمرات ، وحين حضرت مرة دورة الأمم المتحدة . لا أستطيع أن أصف أكداس الورق التى كانت تنهال علىّ ، ولعل الدافع لى على كتابة هذا المقال أننى سافرت أخيرا الى بيروت

لأحضـــر مؤتمر كُتَّاب آسيا وافريقيا بحقيبـــة تزن ١٠ كيلو ، وعدت ووزنها ٣٥ كيلو . والفرق ثق أنه ليس هدايا وأدويـــة ، بل ورق .. ورق .. ورق .

لا أمل في « نوح » جديد ينقذنا . اذن لابد من الاسراع بايجاد توازن بين قدرة الورق على الهجوم وقدرتنا على الدفاع . هل هو العقل الألكترونى ؟ هل لابد من اختراع لغة جديدة رمزية تحل فيها الكلمة الواحدة محل سفر كامل ؟ أم الحل أن تؤلف جمعيات فدائية تتولى تخليع أشجار العالم كله لتهدأ صدورنا من اللهاث وينزاح عنها هذا الطوفان المخيف ؟

علمت بعد عودتى من بيروت أن حريقا قد التهم محتويات مخزن احـــدى شركات توزيع المطبوعات ، وكنت أمر به فأشيح بوجهى عنه ، فلا شىء أثقـل وزنا ودما من الكتـاب المرجوع ، الراقد كالميت . انه كالقطار لا شىء أخف منه فى جريه ، ولا أثقل منه اذا تعطل ووقف . أؤكد لك أننى خشيت أن يقبض علىّ بتهمة اضمار نية احداث الحريق فى هذا المخزن . فالحق هذا هو ما كنت أتمناه كلما مررت بهذا المخزن المخيف .

(« المساء » ، ١٠ / ٤ / ١٩٦٧ ، ص ٤)

مذكرات فنان غشيم فى الكار ..!

أتابع الآن ذكرياتى عن أول لقاء لى بفن الأوبرا ، لا يدفعنى على أن أرويها هنا فأتعرض لتهمة التحدث عن النفس الا أملى فى أن تكون ذات نفع لك ، والنفع عندى يشمل الابتسام ، فلا شك أن الجيل الحاضر من حقه أن يلم بتجارب الجيل الماضى وما لقيه فى طريقه من عثرات وأوهام حتى لا تتكرر هذه العثرات وهذه الأوهام ، فلعل العظة ان خابت ألف مرة أن تصيب مرة . ولاشك أن من واجب الجيل السابق ألا يكتم الشهادة ، فلا نجاة لكل جيل من ألم شعوره بأنه باق متصل الأثر ، لأنه يورث الجيل اللاحق أفضل ما عنده ، عصارة تجاربه ، عسى أن يحقق ما عجز هو عن تحقيقه .

ولا يهم الجيل الحاضر أن يعرف عن الجيل السابق كيف كان يأكل ويشرب وماذا كان يلبس ، بل لا يهمه أن يعرف ماذا كان يقرأ أو حتى ماذا ألف وماذا كتب ، بقدر ما يهمه أن يعرف النمو الروحى لهذا الجيل السابق أن تنكشف له الستار ليرى من ورائه صراع النفوس مع المبادىء والمعتقدات ، التحول من الشك الى اليقين أو من اليقين الى الشك ، تلمس الطريق فى الظلام عسى أن تؤدى سراديبه الملتوية الى مخرج يدل عليه من بعيد بصيص من

نور ، يومض وينطفىء ، تخبط البحث عن مرفأ يعصم من الغرق . راكب النورق الذى تتقاذفه الأمواج ، يقذف بحبل يربطه على وتد يمثل الثبات في عالم مقلقل .

ومن أسف أن هذا النوع من المكاشفة غير معروف عندنا ، ان أردنا أن نعرف أحدث مثل له ينبغى أن نقفز الى الوراء قفزة طويلة لنصل الى كتاب « المنقذ من الضلال » ، فانه ترجمة ذاتية روحية للامام الغزالى . لم يخجل من الاعتراف لنا فيه بتخبط ضلاله قبل أن يهتدى الى مذهب يؤمن به .

أما نحن فنتحرج اليوم من التحدث عن زيغ لنا سابق ، حتى بعد أن نثوب إلى الرشد فنندم وتصدق توبتنا ، نخشى الاعتراف بالضلال الذى خضناه من قبل الوصول الى نور الهداية .

لم يخجل الكاتب اليونانى كازانزاكس - وأغلب الظن أن جائزة نوبل كانت ستمنح له لو امتد به العمر - أن يروى فى كتابه الفذ « رسالة الى الجريكو » قصة تخبط روحه فى البحث عن عقيدة .

واذا كانت ذكرياتى التى أرويها هنا لا ترتفع الى هذه القمة الأوليمبية ، فانها - رغم تواضعها وقلة خطرها - تنبع من نفس الرغبة فى أن يكشف الجيل السابق عن تجاربه لينتفع بها الجيل الحاضر .

رويت لك فى مقال سابق خط سيرى من القاهرة الى جدة . وقد تفضلت وزارة الخارجية فنقلتنى بعد جده تركيا ثم إلى ايطاليا ،

فكان هذا أول لقاء لى بالحضارة الغربية . ومن حسن حظى ، أن هذا اللقاء الأول لم يتأخر فلا يلحقنى الا وأنا شيخ متبلد الذهن ، عاجز عن التأثر والاستيعاب ، ففى سنة ١٩٣٤ وصلت الى روما – عاصمة الرينسانس ، ديار ميخائيل أنجيلو ورفائيل . موطن دانتى وجاليليو ، بلد فراى وروسينى وبوتشينى ، حتى ماسكانى كان لايزال على قيد الحياة .

وكنت قبل وصولى الى روما قد قرأت عن الحضارة الغربية وفنونها وآدابها حتى كدت أتلف مقلتى . دراسة كبار الرسامين فى صور لهم فى الكتب لا فى المتاحف ، وكذلك ان فاتنى طول الاستماع الى الكونسير الى الكونسيرتات والأوبرات – حتى عن طريق الاسطوانات فانى كنت أوشك أن أعرف كل شيئ عن حياة كبار الملحنين فى تاريخ الموسيقى . أعرف أسماء أعمالهم وظروف تأليفها . كنت خبيرا فى الرسم وأنا أعمى ، وخبيرا فى الموسيقى وأنا أصم .

كنت « ريدرزدايجست » لمكتبة كبيرة . لا أزيد أنا الآخر عن أن أكون كتابا – فى حجم كتاب الجيب – مدفونا فى مخزن مظلم لا يرى النور ، وفى بطنه علم كثير . وكان خيرا لى – وهذا شىء لم أدركه الا فيما بعد – أن أقرأ نصف أو حتى ربع ما قرآت ثم أذهب الى المتاحف وأستمع الى الموسيقى ضعف ذهابى واستماعى .

وكان قد بقى فى نفسى من هذه القراءة أثر الرحلة الى روما على الشعراء الرومانسيين الانجليز ، بيرون وكيتس وشيلى ، وكيف أن الهة الشمس جادت لهم بخير ما عندها على شاطىء خليج نابولى ، بين اشراق النور وزرقة البحر وصفاء السماء . ما أبعد بهجة هذه الألوان عن كآبة ألوان بلدهم انجلترا ، تراب الفحم يهبط على مدن ضائعة فى الضباب ، يجرى فيها الناس كالأشباح الضالة ، وأجسادهم ترتجف من شدة البرد .

وعرفت كذلك أثر الرحلة الى روما على جوته . فقد كان اجتيازه لجبال الألب من الشمال الى الجنوب حدا فاصلا فى حياته بين الضباب والنور ، الغموض والوضوح ، بين الهمجية والحضارة .

فكان يخيل لى قبل وصولى أننى اذا حللت بروما سأسجد على الأرض لألثمها ، واتمسح بأعمدة كنيسة بطرس وأرقد على سلم الأوبرا .

ولكن عبثا بحثت عن هزة قلبى ، عن أثر لانبهارى .. وجدت أن النور فى جو روما ان لم يساو فهو لا يزيد عن النور فى جو بلدى الذى لا يعرف الضباب .

شتان فى الرحلة الى روما بين رجل يجيئها من الشمال ومعه تركة ثقيلة من مخلفات همجية ، قبائل الفاندال والفيونيون والفايكنج ، وأحزابهم ، وبين رجل يجيئها من الجنوب ، هو من أبناء

الشرق ، فى جعبته كنز ثمين من حضارة كانت لا تقل عن حضارة أوربا ، ومن ثقافة ان اختلفت عن ثقافتها فهى لا تقل عنها شمولا ولا قدرة على التملك وعلى اثارة الاعجاب والولاء .

ومع ذلك لم أجهل أنى قادم من بلد متخلف ، سبقه الزمن شوطا طويلا ، فكان من الواجب على أن أجرى لألحقه ، حتى اذا ساويته استطعت أن أنفصل وأشق طريقى مستقلا عنه ، واذا أخذت منه فسأعلم أننى سأعطيه المقابل .

وبدأت أتعلم لأول مرة - بالاستماع والنظر - لا بالقراءة ، فأدخل المتاحف وأغشى الأوبرا وحفلات الكونسير ، مواظبا كأننى تلميذ يطمع فى جائزة « حسن السير والسلوك » .

ولا أكتمك أيضا أننى اندفعت فى هذا التتلمذ لأننى أنفت أن أجلس فى المآدب الرسمية بجوار سيدة جميلة مثقفة فتجدنى لا أحسن الكلام الا فى الأكل والطبيخ وآخر الأفلام ، فاذا أدارت وجهها عنى والتفتت أغلب الوقت الى جارها فى الجانب الآخر ، وكان انجليزيا أو فرنسيا أو ألمانيا ، دار الحديث عن المعارض والكونسيرات .. انى أقترح على وزارة الخارجية أن تجعل النجاح فى الامتحان عن تاريخ الفنون الجميلة شرطا أساسيا لدخول السلك الدبلوماسى والقنصلى .. سينتقل مبعوثوها - بفضل هذا النجاح من مرتبة « موظف » الى مرتبة « بنى آدم » .

رأيت كيف وصلت الى روما وأنا مثقف وغشيم في الكار معا ، وقد بدا اعتدادى بأننى موظف قد الدنيا فى غشوميتى فى بحثى عن سكن . أبى لى السلك الدبلوماسي والقنصلى الا أن أبحث عن شقة مفروشة فى عمارة حديثة مبنية بالأسمنت المسـلح على طراز « نوفى شنتو » (١٩٠٠) فى أحدث أحياء روما ، كان من قبل أرضا خلوية فى أطـراف المدينة ، مثل أرض مدينة نصر فى القـاهرة مثلا . وقيل لى فى وصف هذه الشقة انها لوكس لا لشىء الا لأن بها حماما وتدفئة مركزية بأنابيب المياه ، ولأن الأثاث من طراز « نوفى شنتو » أيضا ، خطوط وزوايا قائمة وأرجل كل منضدة مفرشحة مودرن جدا .

وتحملت فى سبيل الأبهة ما لهذه العمارة الحديثة من مقدرة فائقة على توصيل الصوت ، كنت أسكن فى الدور الثالث فاذا لعب طفل بالبلى على سطح العمارة - وهى من عشرة أدوار - سمعت خبطة البلية فى البلية ترن فى أذنى . وكنت أعجب كيف يمكن أن تقال فى هذه العمارة كلمة وتبقى سرا .

ولم أدرك فقر ثقافتى واحساسى الفنى الا بعد أن خالطت قرنائى الانجليز والألمان والأمريكان . وجدتهم جميعا يصدون عن الأحياء الحديثة ولا يبحثون لهم عن سكن الا فى الأحياء التاريخية القديمة ، وسط الأزقة الضيقة ، والدخول الى الدار من تحت بوابات

عتيقة ، ليس فى البيت مصعد لأنه من دورين وعلو درجة السلم نصف متر ، وبير السلم ظلام كالكحل ، واذا دخلت الردهة لم تجد الا مدفئة مفتوحة ليشعل بها حطب فروع الشجر الغليظة . وأمام المدفئة – عن يمين ويسار – كرسيان عتيقان . هذا كل الاثاث . على رف المدفئة بعض خزف الأوترسك . وعلى الجدار لوحة من القرن الخامس عشر (هكذا يقال) . هذه هى روما التى يحبونها . روما مصدر ثقافتهم ، فليس الا فى مثل هذه الدور ترتاح نفوسهم . أما الأحياء الحديثة فيتركونها للغشم أمثالى .

صاحب هذه الشقة بارون أو مركيز ايطالى مفلس ، فى اصبع يده خاتم ثمين موروث عن كاردينال ، والشقة والخاتم واللقب حجارة ودع تفرش على الأرض بأمل اصطياد عروس غنية من بلاد الدولار .

(« المساء » ، ٢٤ / ٢ / ١٩٦٤ ، ص ٨)

الزهرة والاصيص ..

كنت لا أعود الى الوطن أثناء عملى بالسلك الدبلوماسى الا فى
جازة قصيرة مرة كل سنتين أو ثلاث ، فكان أول شىء أفعله بعد
ن أنفض غبار السفر ، وقبل أن أزور اخوتى ، أن أذهب الى بيتها
ى الحلمية الجديدة ، أن أحج اليها ، لأجلس بين يديها فى
صالون المريح المكنون الذى لم يتبدل فيه شىء مدى أربعين عاما .
لقاعد هى هى فى أماكنها هى هى . فترات الصمت بيننا أطول
ن فترات الكلام ، وبارك لنا فى الصمت أن زوجها لا يشارك فى
حديث الا بابتسامة تجمع بين أذنيه ، تشق وجهه الوردى المستدير
ن رأسه المكور الفاحم الشعر .

لست بالغريب عن الدار حتى تفسد عليه زيارتى بحبحته فى
ثيابه السكروتة المهفهف . هو ابن ذوات من حى سيدنا الحسين
ن كان يتقن الفرنسية كأحد أبنائها .. ثم أقدم لها زجاجة العطر
ى تحبه فلا تشكرنى بكلمة ، فلا يزال من حق الست الستوتة أن
بل هدايا عيالها كأنها قربان ، ولكن نظريتنا – وهما تبتسمان
ـا – تتقابلان خطفا ، فاذا المخطوف هو عمرى كله منذ
ولتى . من نظرتها يقطر الحنو والاعتزاز ، وأعلم أن نظرتى

تتمتم بالود والاعزاز . هى المعطية وأنا المتلقى . وتصمت على حين أن زوجها يقلب الزجاجة كأنها من العجائب التى لم يرها من قبل ولا تفوته مع ذلك كلمة أو اشارة رمزية فى حديثنا المتقطع .

وعدت آخر مرة بعد غيبة طالت ست سنوات ، وذهبت اليها ثم خرجت – وزوجها يصحبنى عبر الحديقة الصغيرة حتى الباب – وأنا حزين منكسر القلب .

هذه الطفلة الشقراء – أم الضفيرتين ، النظيفة الملبس .. جورب للركبة أبيض ناصع ، وحذاء قصير لامع ، تجللها « الستوتسة » من قمة رأسها الى أخمص قدميها . ان تكن واحدة منا نحن أطفال الحى الذين يلعبون فى الشارع أمام البيوت فانها أصبحت منذ أول يوم لها معنا – دون أن ترشح نفسها أو يجرى انتخاب – ست الستات عند الشلة . ربما كانت أصغر منا سنا ، لكنها كانت لنا جميعا أختنا الكبرى ، بل اعزازنا لها يفوق اعزازنا لأخواتنا الشقيقات .. أكبر سعادة لنا أن تقنع بالجلوس على دكة البواب وتراقب هى لعبنـا . لا طعم للذة والغلبة الا على مرأى منهـا . وهى « الأم » فى « الاستغماية » . عندها نودع ما كسبناه من البلى الملون والرصاص اذا ضاقت به جيوبنا . هى التى تقرر اذا كان الجون « محسوبا أو غير محسوب » .

لا بأس عندنا أن تقوم أحيانا لتشارك فى نط الحبل ، بمفردها

أو بين اثنتين تتوليان ترقيصها ، لتسحرنا برشاقتها الهوانمى ، أو لعبة « الرشتة » فلا يكون بين الأخريات من هى أبرع منها وأخف قفزا على قدم واحدة أو احكاما فى زحزحة الطوبة من خانة الى خانة ، فاذا استراحت فى « الخانة الرابعة » وضعت يديها فى وسطها « وشنت » دون أن تستعين بمنديلها ، وهذا هو عيبها الوحيد ، فارتعشت أرنبة أنفها ، اذ كان لها أنف دقيقة شماء مجذوبة المنخرين الى أعلا قليلا .

تشارك فى اللعب تنازلا منها ، كأنما لكى ترى بقية البنات كيف يكون نط الحبل وأصول الرشتة . قد نتعارك نحن الأطفال فيما بيننا ، ونشد بعض البنات من الشعر أو نوقعهن أرضا أو نزغدهن ونزعق فى وجوههن ، لكن هيهات لأحد منا أن يلمس ست البنات باصبعه أو يرفع فى مخاطبتها صوته . كانت تمثل كل ما فى قلوبنا الصغيرة من حماسة غامضة وتلهف مبهم للدفاع عن حرم مقدس جميل لا ندرى ما هو .

ثم قبيل الغروب يطلع علينا بائع الجيلاتى التركى القزم ، عم سوسو ، ينفخ فى بوق صغير ، فنتحلق حوله ، ويشترى كل منا قمعا ، ثم نتفرق وندخل بيوتنا .. نفخ هذا البوق لا يزال يرن فى أذنى الى اليوم بعد أن جاوزت الستين .

ودخلنا المدارس الثانوية ، هنا وهناك ، ولبسنا البنطلون

الطـــويل ، وانقطع اللعب أمام البيــوت ، واحتجبت ست البنات عنا . ولكن جميع الأسر في هذا الشارع تتعارف وتتزاور ومعها الأولاد وان كبروا ، فكنا نحس أن الشلة لم تنفض ، وأن ست الســتات ، واســطة العقد ، هنــاك وراء هذه النــافذة في هذا البيت . فاق طولها طولنا . فتاة حلوة في ميعة الصبا ، من حقها اللهو والعفرتة ولكن الستوتية ظلت تجللها من قمة رأسها الى أخمص قدميها .

وكبرنا ، وأصبح فينا المحامي والطبيب والملحق الدبلوماسي ، وتزوج بعض أولاد الحي من بعض بنات الحي ، ولكن أحدا منا لم يتقدم لخطبة ست الستات . قد تقول : هذا منطق غير معقول ولا مبرر ونتيجة غير متوقعة ، ولكن ثق أن هذا هو الذي حدث . أنا لا أعرف السبب فتفلسف أنت كما تريد . قل أنها كانت لا تزال في نظرنا هي أبدا شيئا مقدسا أبعد من منالنا . قل اننا كنا تخلط في ذلك الوقت بين الجنس والتلوث ، أو على الأقل بين الجنس والامتهان ، وكان لها في قلوبنا اعزاز وتوقير لا حد لهما .

وعلمنا ذات يوم أنها تزوجت من شاب ابن ذوات من حي الحسين . لقد أحسسنا حينئذ وحسب بمقدار خسارتنا وحماقتنا . قلوبنا توجعت بأنين خافت ، ثم محونا ذلك كله بافتعال اشتياق لرؤية الزوج ، فوجدناه شابا بدينا ، له رأس مكور ، ووجه مستدير

وردى ، شعره كث قصير أسود كالفحم ، لا يحب الكلام ، بل يشارك في الحديث بابتسامة تجمع أذنيه وتشق وجهه . أحسسنا أنه انسان ابن أصل ، طيب القلب جدا . وأنه سيكون لست الستات نعم التابع المطيع فاسترحنا ، لأن شخصيته لن تطغى على شخصيتها .

وكان زواجها بمثابة عودة بعد انقطاع طويل لنفخ بوق بائع الجيلاتى التركى القزم . فكما كانت عربته تجمعنا حولها ، أصبح بيتها يجمع الشلة بعد تفرقها . بحثت عنا واحدا واحدا ودعتنا الى بيتها ، وفتحت لنا صـــالونها . عندها تنفض المنازعات وتصفو القلوب . التأمت الشلة فى هذا الصالون الذى لم يتبدل فيه شىء مدى خمسين عاما . لم يتغير أيضا دارها ، ولكن زياراتى المتقطعة - ربما - هى التى جعلتنى أقدر الجميع على ملاحظة هبوطها سلم الحياة درجة درجة .

بعد زمن هو فى الحساب طويل ، وهو عندى كغمضة عين ، كيف يارب أصبحت ست الستات الحلوة الفتية هذه المرأة المحطمة . لا أظن أن السبب هو سلسلة الأمراض التى مرت بها . فى قلبى شك أن زوجها ابن الذوات لم يفلح الا فى تبديد ما كانت تملكه ، بكسله لا بعدوانه .

فى آخر زيارة لى دخلت علىّ فى ثوب ذى كمين طويلين وصف أزرار من أمام ، تتوكأ على ذراع زوجها وهى ترمقه بحنان وتشكره

بريق حلو . أحيانا تتوكأ الدادة العجوز على الطفل ، هكذا رأيتها . جلست على المقعد بصعوبة ، وتناولت الزجاجة منى بيد مرتعشة . تتكلم قليلا ثم تلهث . الشعر الكستنائى أصبح نحيلا ، خالطه المشيب . سألتنى عن بقية الشلة واحدا واحدا ، فأدركت أن زيارتهم لها قد قلت ، الدنيا تلاهى . وانسرفت نظرة منى الى زوجها ، فاذا هو لا يزال شابا بدينا ، وجه مستدير وردى ، ورأس مكور ، وابتسامة تجمع أذنية وتشق وجهه . لم تبيض فى رأسه شعرة واحدة .

ولما خرجت للشارع أدركت أيضا - وربما لأول مرة - أن حى الحلمية الجديدة قد تبدل وجها بوجه وأقواما بأقوام . أحسست أننى انتهيت من تقليب ألبوم حتى وصلت الى ورقته الأخيرة ، فقفلت غلافه السميك .. مشيت وأنا أصيخ السمع أنتظر أن يأتينى ولو من بعيد صوت نفخ بوق صغير اذ كانت الشمس قد آذنت بمغيب .

(«التعاون » ، العدد ١٨٥ ، ٤ / ٩ / ١٩٦٦ ، ص ٨)

اعترافات .. ومضايقات ..

لا أجهل أن كل افضاء بأسرار النفس لا يبرأ من ضعف وسخف واشتهاء ذليل لصب الهموم على رأس المستمع ، ولا يسلم من رغبة مريضة فى لفت الأنظار ولو بالتعرى ، وطلب تبرير النقيصة الى استجداء الثناء عليها ، باعتبارها مظهرا لارادة مستقلة تأبى التقيد بسلاسل قافلة الأسرى الطائعين . ومع ذلك ألحت على نفسى اليوم – وهى كعهدها أمّارة بالسوء – أن أحدثك عن بعض أسرارى ، فلم أقو على مقاومتها – شأنى معها دائما – ولعلك لا تعلم إنى نشـأت فى عصر كان يحب الاعترافات ، ومن أوائل الكتب التى قرأتها فى صباى بالانجليزية « إعترافات آكل أفيون » ، وبالعربية « إعترافات عريجى حنطور » و « اعترافات مومس » .. الخ .. ولا أدرى تعليلا لاختفاء هذا اللون من الكتب فى الوقت الحاضر . ربما كانت القصة هى التى قتلته ، أو لعله لقى مصرعه على يد باب « اسألونى » فى الصحف والمجلات . وأنى أتمنى أن أبعث هــذا اللـون من قبـره وأضـع كتــابا بعنــوان « اعترافات قصص » ، يكون هذا المقال أول فصوله .

***

لا أزعم قدرة على التنبؤ ، ولو تخيلت ثم خلت لكانت قراءة نشرة الأرصاد الجوية شافية لى وحدها من حماقتى ، فلم يكن اذن التنبؤ في مطلع حياتى بما يحدث لى الآن فى شيخوختى هو سبب احجامى حينئذ عن نشر أوائل قصصى إلا بأسماء مستعارة ، وعمدت زيادة فى التضليـــل الى سرعة التنقـــل بين رموز مختلفة لا رابطة بينها ، فكتبت مرة باسم « لبيب » وهو اسم لصديق أحبه ، وتلميح من بعيد بأننى – يا للغرور – أفهم بالاشارة ، ومرة بامضاء « قصير » مبالغة فى السخرية بنفسى وان أضمرت أملا فى أن يفسرها بعض القراء بأنها تجديد لذكرى « قصير » داهية العرب الذى قال فى قصة الزباء : « لو كان يطاع لقصير أمر » فذهبت مثلا ، ومرة بامضاء « عبد الرحمن بن حسن » حين كنت أهيم بالجبرتى ، ومرة بامضاء « عابر سبيل » ، فقد كانت هذه صفتى فى الحياة حينئذ ، وربما الآن أيضا ، واكتفيت مرارا بالحرف الأول من اسمى ، ثم كنت أشتط فى ارهاق أصفار المطبعة فأتبع حرف الياء بسطر يكاد يكون كاملا من نقط متتالية ، كأنى أعوض ما فاتنى فى الطول ، ومرة باسم « أبو نهى » وهو كنيتى بعد أن رزقت بالولد . وآخر هذا العبث كان امضاء « شاكر فضل الله » وهى الحكمة التى تكتب وغيرها من أمثالها على المقاعد العربية المطعمة بالصدف ، والتى تقول بخط جميل « القناعة كنز لا يفنى » ، وكان هذا مقعدى المفضل فى بيت صديق بدأت أخالطه ، وان لم أنعم

فوقه براحة وبقيت ساقاى مدلدلتين أمامه ، ولكنى كنت أجد شيئا من البركة حين تتمسح كفاى حتى تتضمخا بعطر هذه الحكمة .

فعلت هذا لأنى كنت أؤمن فى تلك العهود كلها أن الكاتب يكفيه أن يقتحم رأيه على قرائه ، فينبغى أن يتورع بعدئذ من أن يقحم عليهم نفسه فوق البيعة ، أو قل لعلى توهمت أن وراء التستر حرية تتيح لى أن أخوض كما أشاء فى سيرة أصدقائى ، أو أنبش عش زنابير دون أن يسيح دمى . سمها ان شئت – كما أزعم – تواضعا وحكمة ، وسمها – ان شئت – جبنا وقلة وثوق بالنفس ، ولكن الحقيقة أيضا أننى كنت أتشهى تذوق لذة عجيبة ، أن أكون فى مجتمع من الناس ، آمل أن يكون بينهم واحد – واحد وحيد على الأقل – قد قرأ ما كتبت ، فيثير الحديث حوله ومن لا يعلمون أننى أنا المجرم أو البطل فيفتحون باب قلوبهم على مصراعيه ، وأستمع الى رأى صريح بلا مجاملة ، فان كان مدحا أرضانى مرتين ، وان كان ذما جعلت أذنا من طين وأذنا من عجين وكفى الله المؤمنين شر القتال .

والغريب أننى رغم طول تلهفى على نوال هذه اللذة لم أظفر بها مرة واحدة . الظاهر أننى كنت أخالط أناسا لا يقرأون ، أو يقرأون كل شىء الا ما أكتب ، أو أننى كنت أكتب فى صحف ومجلات بلغ من عار بوارها أن أصبحت سرية .

وقد ضقت مرة بطول خيبتى واخفاقى فزل لسانى فى مجتمع ذات يوم وسألت الحاضرين وسط الحديث عرضا ، وأنا أتصنع التعابط : « هل قرأتم مقالا بامضاء كذا فى صحيفة كذا ؟ » ، وكان هو آخر مقال لى . وكنت أظن أننى أحسنت المكر ، فاذا بى أجدهم - لشدة دهشتى - قد أدركوا على الفور أننى كاتب هذا المقال .

الظاهر أننى لا أحسن الكذب ، أو لعل المثل القائل « من كانت على رأسه بطحة يحسس عليها » هو الذى هداهم الى السر . وكان من سوء حظى أن ذاك المقال هو أسخف ما كتبت ، فانهالوا علىّ توبيخا وتقريعا ، فتبت من ذلك اليوم عن العودة لمثل هذه الحماقة وألجمت لسانى وضاعت علىّ الى الأبد هذه اللذة التى جريت وراءها طويلا .

والغالب أنى تعبت من هذا التستر ، أو قل مللته لطول صحبته ، وربما اشتقت للشعور حين تقدم بى العمر أن تمضى سيرتى كلها ملخصة فى ثلاث كلمات « صرخة فى واد » ، فكشفت عن نفسى فاذا بى على غير ما أنتظر أقع فى متاعب عجيبة لا قبل لى بها ، بحيث أصبحت أترحم على أيام أسمائى المستعارة ، فقد كنت بها أكثر سعادة .

***

أول المتاعب هذه الحيرة الشديدة إزاء ملاحقة الناس لى - أصدقاء وغرباء - بآراء شديدة التناقض . يقول لى واحد عن قصة أنشرها : « إياك أن تعدل عن هذا اللون ، شىء بديع وحاجة عظيمة » .. فأشك فى ذكائه قليلا . وهذا آخر يقول لى عنها : « لم أفهم كلمة واحدة . ماذا تريد أن تقول ؟ ينبغى أن تعدل عن هذا اللون الى غيره ، وتكتب كبقية زملائك الناجحين عن الحب والمراهقات ، هذه هى بضاعة اليوم » .

وأظل بعد ذلك أياما تسمع أذنى اليمنى وسوسة من اليسار تقول : « اعدل عن هذا اللون » ، وتسمع أذنى اليسرى وشوشة من اليمين تقول : « اياك أن تعدل عن هذا اللون » ، فاذا أمسكت بالقلم تلجلجت طويلا ولا أفلح فى خط كلمة واحدة الا اذا نسيت الاثنتين معا ، مع ذلك يظل نقد ثانى الفارسين ينخر فى قلبى ، فأتعمد السهولة والبساطة على خلاف طبعى ، فاذا به هو الذى يكلمنى بالتليفون على الريق ويقول لى : « برضه مش فاهم » . أكاد أراه يطلع لى لسانه .

أما الفارس الأول فيكتمها فى قلبه حتى يلقانى ليقول ولو بعد مضى ستة شهور انها قصة تؤذن بتدهورى وخيابتى .

ان ارضاء الناس جميعا من رابع المستحيلان ، يأتى قبل الغول والعنقاء والخل الوفى .

***

وأصبحت كذلك اذا كتبت قصة أجعلها وليدة الخيال وحده الا وخرج لى انسان (لأجمع بين الرجل والمرأة) يقول لى :

– ألا تستحى أن تصفنى بهذا الوصف القبيح ، وتشنع بى علنا ؟ خلق الله كلهم بين يديك فلماذا جاءت قرعتك على ؟ هل أنت قصصى أم جاسوس أم بطل عالمى فى الغيبة ؟

ثم يقاطعني ويدير دعايته بتقبيح سيرتى والازراء بأدبى محذرا بقية الناس منى . حتى فكرت أن أعدل الى كتابة قصص تدور على ألسنة الحيوان تقليدا لكليلة ودمنة . وحتى لو فعلت هذا لما سلمت – فيمـا أظن – من انســان يعـلن أنى قصـدته حين وصـفت الثـور « شتربة » . سأكتب عن الأسود والفيلة والطواويس وحدها .

لكن الأدهى من ذلك كله أننى وجدت أغلب الناس الذين أعاشرهم عن مودة قديمة أو حديثة قد انقلبوا فجأة الى « متعهدى توريد مواضيع قصص بالمجان ولوجه الله » . هم كل واحد منهم اذا قابلنى أن يروى لى من الباب للطاق حكاية سخيفة ثم يضيف :

– ألا تصلح بذمتك موضوع قصة هائلة ؟ لماذا لا تكتبها ؟

طبعا هذا الصديق المتطوع يخفى العزم على التنديد بى إذا كتبت هذه القصة قائلا اننى سرقتها خلسة من حضرته .

هذا التطوع شائع بين كثير من الناس ، يظنون فى أنفسهم خفة الدم وهم ثقلاء جدا ، بل هم من الغرور بحيث يؤمنون أن كتابة

القصة عبث لا يليق بكرامتهم فيخلعونه على الحمقى أمثالى مدا لهم فى غيهم السخيف .

تصور أننى أضطررت أخيرا أن أهرب من الحلاق الذى أتزين عنده منذ صغرى ، ومنذ أسمائى المستعارة ، رغم أننى أستريح لرقة لمسته وهو يلكز رأسى ليجعلنى أطأطى البصلة لينكشف له قفاى عن آخره . أو لا يعلم أن ثورة أعصابى حينئذ تبلغ ذروتها ؟

أتدرى لماذا هربت ؟ لأنه بدأ أيضا يقترح علىّ موضوعات لقصصى .

وجاء علىّ زمن أصبحت فيه لا أقوى على دخول دارى إذا رجعت آخر الليل بعد أن أحك على بلاط السلم كل ما علق بجعبتى من هذه الحكايات كما يحك العائد من ليلة مطيرة حذاءه على المسحة الليف أمام الباب . (على فكرة : لماذا اختفت هذه المسحة فى أيامنا هذه ؟) .

***

والألعن من هذا كله .. رجل لا أعرفه ، أقابله فى مكتب حكومى فى شغلة ، ويكون قد سمع باسمى ولا أدرى أين . فأراه يترك المسألة التى جئته من أجلها ويقبل علىّ متعطفا ودودا وهو يقـول : « أنا مبسوط يا أستاذ من قصتك المسلسلة » . ولم أكتب عمرى قصة مسلسلة ، أو يقول أنه معجب بكتابى الأخير ، فاذا نكشته تبين لى أنه لم يقرأه .

وآخـر الدواهى رجـل قــال لى أخيرا وهو يمدحنى بلا سبب ولا غنم :

– انك رجل تقدمى ، ولكن هل كتبت شيئا بعد « لمبة الست نفيسة » ؟

يشير إلى قصة كتبتها منذ أكثر من عشرين عاما باسم « قنديل أم هاشم » .

خرجت من عنده وأنا أكاد ألطم الخدين .

(« المساء » ، ١٩٦١/١١/٦ ، ص ٨)

من ٥ر٣٧° إلى ٤٠° ..!

بارك الله فيمن انتفع ونفع ، فأنا أحب لك أن تنتفع بتجربتى ، ولست أضمن لك مفعولها مائة فى المائة ، فالناس تختلف . اذا كنت مثلى من المصابين بهوس القراءة ، لا تستطيع أن ترفع بصرك عن كتاب - أى كتاب - إلا إذا كنت - على سبيل الحصر - نائما أوسائرا أو منشغلا بتناول الطعام. أقول على سبيل « الحصر » لكى يسرى الحكم على أماكن قد تخجل من الاعتراف بأنك تقرأ فيها ، وعلى أوقات يتهمك فيها الأصدقاء بالجليطة وقلة الحياء ، لأنك تحدثهم وتقرأ فى آن واحد .

وإذا كنت مثلى لا تفسر المرض إلا بأنه فرصة بديعة تتيح لك أن تدلع نفسك وتتدلع على أهلك . تقول كل خمس دقائق اغلقوا النافذة إذا كانت مفتوحة ، أو افتحوا النافذة إذا كانت مغلقة . وتقول كل ساعة : اعملوا لى كوبا من الليمون . وتقول كل ساعتين : أين البودرة ؟ غيروا لى الفانلة وملاية السرير ووش المخدة . أين الكولونيا ؟ وتقول ساعة الغداء : أين الدجاجة المسلوقة ؟ وإذا حل العشاء هل اشتريتم التفاح ؟

وجع الدماغ . فرصة بديعة للهرب من كل شىء يدعو إلى وجع الدماغ . فما تطل مشكلة برأسها إلا قلت : عن اذنكم أنا تعبت قليلا وأريد أن أستريح . نلت ما تريد دون لوم أو تقريع . جميع المطالب المالية مؤجلة ، همها وقع على أكتاف غيرك .

إذا ضممت مثلى هوس القراءة ودلع المرض وسألتنى : ماذا أقرأ وأنا مريض ، أجبتك من واقع تجربتى هكذا :

من ٥٣٧ر٥ إلى ٥٣٨

ثق أن الصحف اليومية لن تسليك ، بل ستصيبك بارهاق شديد ، والبركة أيضا فى الحروف الجديدة المكعبرة المنمنمة . كل مشاكل العالم ستبدو لك تافهة تتضاءل بجانب مرضك الضئيل الذى تحب أن يتضخم فيتضخم . يخيل اليك أنك قرأت الكلام ذاته أكثر من مرة ، وستشعر ، لأنك تتنفس بضعف - هكذا تزعم - أن كتاب اليوميات يحزقون حزقا شديدا ، وأن عملهم عكس للمنطق . انهم يصبون فى المطبعة كستبانا من العصير فتخرج لك من الطرف الآخر مصاحبة لبشة قصب تعرش حولك وتلم عليك ذباب الأرض كله . ستجد الكلام مجرد شقشقة ، وأن الخوف من الحرب حكاية

قديمة قد باخت وشاخت وحقت احالتها على المعاش ، وأن لا ضير عليك من اغفال الاطلاع على آخر أخبار مؤتمر جنيف .. نم وقم ، وقم ونم كما تشاء ويشاء المرض حتى ولو امتد السنين الطوال ، فانك ستجده منعقدا عند شفائك . كم أتمنى أن أشتغل مندوبا فى مؤتمر جنيف ! أما البواب الذى قتل سيدته الفردانية فأنت منذ كنت صبيا صغيرا .

ثم أنت يا أخى لست قارىء كتاب - أى كتاب - لذلك أنصحك أن تنتهز الفرصة وتقرأ الروايات النهرية الطويلة التى لم تجد من قبل وسط مشاغلك وقتا لتجرعها . خذ ثلاثية نجيب محفوظ أو « الأرض » للشرقاوى ، أو « الساقية » للصاوى وكيل الوزارة ، أو « الرجل الذى فقد ظله » لغانم .

لست أريد أن أفاضل بينهم ، أو أن أدبج مقالا فى النقد ، ولكنى لو كتبت لك الروشتة لما ضمنتها إلا الدواء الذى جربته أنا ونفعنى وقلت فيها : جرعة كبيرة من ثلاثية نجيب محفوظ على الريق وبين كل أكلة وأكلة - أحتفظ بزجاجة الدواء تحت المخدة ، فهى التى احتملتها وهى التى أسعدتنى ، بل انى أشكر المرض الذى أتاح لى قراءتها . أنه كان من بين جميع أمراضى أخفها دما ، لأنه أقلها عداء للفن .

وجدت أكبر راحة لأعصابى وبدنى وزهنى فى هذا الأسلوب

التقريرى البديع الذى يدنى جميع السماوات الى مستوى يدك حتى تستطيع أن تلمسها دون أى مجهود منك ودون أن تصاب روحك برجة عنيفة مزلزلة . حتى الدموع التى ذرفتها وأنا أصحب « الست أمينة » إلى بيت أمها بعد طلاقها ، وأنا أسير مع « كمال » وراء نعش لا يعلم أنه يضم حبيبة عمره .. هى دموع رقراقة تزول بمجرد أن أمسحها بطرف أصبعى من تحت جفنى ، حزن مهذب جنتلمان يشجيك بكل أمان ولا يضر المعدة ولا القلب . الكلام كالماء الزلال سهل بلا تعقيد ، لك أن تمزمز به ، أو تحتسيه على مهل ، أو تشربه وفمك يعب منه عبا .

سيزداد حمدك لسهولته إذا كنت قد قرأت قبل مرضك شيئا لبشر فارس .. والتفاصيل التى يعرضها « نجيب » هى الوسط المثالى بين « اللت والعجن » وبين « اللبيب بالاشارة يفهم » . أسلوب له قدرة هائلة على أن يمشى مع كل إنسان حسب خطوه . وعلى ذلك فلم يترك نجيب فى نفسه حاجة لم يقلها ، بل جعل قصته كلها خطا متصلا ليس فيه عقد ولا مطبات ولا محطات لا يمكن الوقوف قبل بلوغها .

لذلك كنت أقرأ الثلاثية وقت مرضى وأنا مستريح كل الراحة . أقرأ قدر طاقتى فإذا تعبت وقفت دون أن أحس بلهفة على ما فتنى . والعجيب أننى مع ذلك كنت أحس إذا عدت لها أننى كنت

فى شوق شديد إليها ، لأنها تأخذنى من جديد بين أحضانها بكل حنان ، هذه هى براعة نجيب ومهارة فنه المهذب . أنه لا يهجم عليك بمخالب وأنياب ، بل ينفذ إلى روحك نفاذ أبخرة الخمر ، لطيفا مترفقا مهذبا . أنه يملكك دون أن تحس أنه يأسرك أيضاً .

من أجل هذا لم أنصحك أن تقرأ فى هذا النوع من المرض « اللص والكلاب » ، فأنك لن تستطيع أن تلقيها من يدك إلا إذا فرغت وشعرت أنك تجرى وتلهث كالكلاب .

من ٣٨° إلى ٣٨٫٥°

لا صبر لك على الأسلوب التقريرى والمطولات ، أنت تريد كلاما كالملبس يحلى فمك دون أن يزحمه ، وتستطيع أن تمصه وتقرقشه لأنه صلب هش معا ، فأصلح شئ أنصحك به عن تجربة هو أن تقرأ ديوانا من الشعر الحديث ، فهو سهل القراءة خفيف الدم . لا تشغلك القصيدة – وهى من عدة صفحات – الا دقائق معدودة لأن كل سطر كلمة أو كلمة ونصف ، شكلها شكل الاستمارة !

وستعينك خلخلة صواميل عقلك قليلا من أثر الحمى أن ينفذ من خلالها إليك بعض معانيه العميقة التى يشق فهمها على الأصحاء ،

وتكون مسارعتك إلى الانبساط أضمن إذا كنت من أحباب صديقى الأستاذ إسماعيل النقيب - بدار « أخبار اليوم » - وأهداك نسخة من ديوانه غير المطبوع الذى جعله تريقة بريئة خفيفة الدم على الأنواع الرديئة من هذا الشعر الحديث . من روائع ديوانه القصيدة التالية .

المعـــزة الحمـــراء

فى المزارع الخضراء

معزة حمــراء

تمأمىء فى الفضاء

فى الوحـــدة الخرســاء

مــــاء .. مــــاء

ونسيم يأتى من بعيد

حلو كالنشيـــد

مئـذنـة

وريح هب من المنزلة

وسمكة القرموط

فى بحر غويط

ووطـاويـط

في المحيـــط
تقاطيع الطريق – يا حبيبى

من ٥ر٣٩° إلى ٥ر٤٠°

دمك يغلى ، ألفاظك ذابت فوق النار فى عجينة واحدة ، وليس فى العجين روابط ولا تسلسل . كلامك أصبح خطرفة بليغة بدون معنى عند الأصحاء ، ولكنها عندك أفصح تعبير عن موضوعيتك .. كأن المحرومين من الكلام كلهم – أحياء وأمواتا – قد وجدوا فى فمك مخرجا لكبتهم ، فألقى كل واحد ما عنده القاء حجارة من كيس .

ومن وراء هذا السيل المنهمر غير المفهوم نطق أخرس لرصيد من الآلام والأوجاع والأشواق والصبابة لم تصب قط من قبل فى ألفاظ ، فأنت فى هذه الحالة أصلح قارىء للأدب السيريالى ، أحدثك عن تجربة . ظلت معى مسرحية « فى انتظارعودة ربو » لصامويل بيكيت شهورا طويلة وأنا مصمم على قراءتها وحاشد كل جهدى لفهمها . وكما يفعلون بالجواد قبل السباق كنت أريح نفسى فى التنزه والترفيه إستعدادا للجلسة التى أتناول فيها المسرحية ، حتى لا أتهمها بأننى لا أفهمها لأننى متعب أو كسول أو سارح الذهن . ومع ذلك قـرأت صفحة أو صـفحتين فلـم أفهم شيئا . وعدت من جـديد إلى « الريجيم » القـديم وتناولت المسرحية من

جديد ، فإذا بها تزداد غموضا . المسألة لا تخرج عن واحد من اثنين : أما أن يكون المؤلف مخبولا أو أكون أنا المخبول .

فلما قرأتها وقد بلغت درجة الحمى بمستوى ٣٩٫٥ هالنى أننى فهمتها بسهولة ، بل وجدتها آية فى البلاغة والذكاء . هزتنى مأساتها إلى درجة القهقهة التى تسيل الدموع ، وأنحيت على نفسى باللائمة وأزريت بها لأنى لم أفهمها وأنا صحيح . كيف حدث ذلك . وأصبحت المسألة لا تخرج عن واحد من اثنين : اما أن يكون المؤلف وأنا من المخبولين أو يكون المؤلف وأنا من أحكم الحكماء وأعظم الفلاسفة . وطبعا فضلت الفرض الثانى .. لأنه واضحا كالشمس .

هذه هى مشكلة المدرسة السيريالية . ان عملها يعتمد على التمزيق ، وأدوتها هى الأشلاء ومنطقهاهو الخطرفة ، لأنها نابعة رأسا من النفس الانسانية فى عز اتقادها وبغير زيف أو خداع . انها تبصق على كل القواميس وكتب النحو لأنها تعتقد أن ضمير الانسان قادر على الكلام بصوت أخرس ، لا لغة له ولا نحو ، ينفذ إلى النفوس فيرجها رجا شديدا .

وكان من دلائل شفائى من مرضى الذى أقعدنى فى الفراش هذه الأيام الأخيرة وحرارتى ٣٩٫٥° أننى استطعت أن أترجم لك منولوجا فى هذه المسرحية ينطق به رجل هو رمز للانسان الأسير فى يد الظلم الاجتماعى ، الضائع فى الكون ، لا يفهم شـيئا ، ولا

ينقطع تشوفه للفهم. أترجمه لك لأننى حين قرأته فى درجة ٥ر٥٣٩°
كنت أقهقه من تريقته على كلام الفلاسفة والفقهاء ، وباطن التريقة
حزن شديد وألم ممض ، ومأساة الانسانية كلها :

قال « لاكى » – وهو خادم في عنقه حبل وله اسم من أسماء
الكلاب : بفرض ما تنطق به المؤلفات العامة لكاني ومانى من وجود
اله شخصى – احم احم احم – بلحية بيضاء – احم احم احم –
خارج عن نطاق زمن بلا مليانه ، وقداسة سليانه يحبنا حبا شديدا
مع وجود استثناءات لأسباب مجهولة ، ولكن الزمن سيكشف عنها ،
وهو مثل أمونه المؤلهة يتألم مع كل الذين أطيح بهم فى النار ، من
نارها وسعيرها إذا طال بهما العمر . وهل فى ذلك شك سيحترق
الكون بمعنى اندلاق الجحيم على السماء ، ما تزال زرقاء ساكنة كل
السكون بسكون وان يكن منقطعا إلا أنه أفضل من لا شيء الكون
بمعنى اندلاق الجحيم على السماء ، ما تزال زرقاء ساكنة كل
السكون وان يكن منقطا إلا أنه أفضل من لا شيء . مهلا مهلا ،
ونظرا لما هو أكثر من ذلك تشهد المؤلفات التى لم تتم والتى خلفها
شرم وبرم للأنثروبوبوبولوجيا ، بأنه نبت بدون وتوجها المجلجلجلس
الأعممل كل شك إلا الشك العالق بأعمال الانسان نتيجة للمؤلفات
التى خلفها كانى ومانى دون اتمامها ولأسباب مجهولة من ينكره
الكثير من أن الانسان عند شرم وبرم أن الانسان باختصار أن

الانسان فى كلمة وجيزة بالرغم من تحسن الأكل والهضم يذوب شوقا وضياعا ثم يذوب شوقا وضياعا » .

المونولوج بقية طويلة أؤكد لك أننى ترجمتها أيضا ولكنى أعفيك منها الآن . على كل حال أقترح على « مسرح الجيب » أن يقدم هذه المسرحية في الموسم القادم ، وينص فى الاعلان : « ممنوع الدخول إلا لمن كانت درجة حررته ٤٠° » !

(« المساء » ، ١٩٦٢/٨/٢٧ ، ص ٨)

حمـــاقة ••

كان يوما لا أدرى بوجه من تصبحته ، فلم يخرج من يدى الا أن أقوم من ارتكاب حماقة سخيفة لأرتكب حماقة أشد سخفا ، أول محاولة للبحث عن تفسير معقول – والبحث فى الحقيقة هو عن تبرير واه جدا يمســح خجلى وينسينى جراحى – ان قلت لنفسى : لا أشك أنك كنت فى ذلك اليوم الأغبر فريسة اعياء شديد . ركبك منذ أن استيقظت . والاعياء على الصبح ألعن من الاعياء آخر النهار . الاعياء يخرس صوت العقل والحكمة ويفسد الاتزان .. وأكثر جرائم العصر ليس مرجعها الانفعال أو العنف ، بل الاعياء ، « فالغريب » فى قصة ألبير كامى لم يقتل لأنه كان منفعلا ثائرا ، بل لأنه كان مصابا باعياء روحى أورثه زهقا شديدا .. من الناس كلهم . من الحياة كلها .. لا وصف لجريمته الا بأنها كانت حماقة كبيرة . ولحسن الحظ كانت حماقاتى صغيرة ، لأننى لست بطلا ، لا فى الحياة ولا فى قصة ، والا لكنت قد قتلت أنا أيضا – ربما – فى ذلك اليوم الأغبر .

ورغم الاعياء بقيت لى والحمد لله مسكة من العقل . فلم ينطل علىّ هذا التفسير ، هذا التبرير ، وقبلت أن أواجه الحقيقة ، ولو كريهة .. أدركت أن مرد حماقاتى الصغيرة هو طبع أغالبه منذ أن

وعيت لنفسى فلا أغلبه بضربة قاضية ، ان صرعته أحيانا صرعنى أحيانا .. وحين أدركت ذلك لم يكن ندمى على ما اقترفت بأقا من حسرتى بأن العمر الطويل الذى قطعته والتجارب العديدة التى حصلتها له تقتلع هذا الطبع من جذوره ، وكانت جداتنا تقول : طبع الانسان لا يفارقه الا على ليفة المغسل .. أى عند باب القبر .

حاشا أن أزعم لنفسى فضيلة أتجمل بها وأزهو ، فأدعى أن مرد هذا الطبع هو وثوق متأصل بلا برهان ورغم الدروس التى تدحضه بأن الناس كلهم مجبولون - مثلى ! - على سماحة النفس .. على افتراض مبدأى لحسن النية لا لسوء النية فى كلام الغير وتصرفاته . فلو كان هذا هو الحال لما عد ما ارتكبته حماقة .. الحقيقة الكريهة التى واجهتها أن مرد هذا الطبع هو تضعضع سخيف مستحذ وانهزام سريع أمام الميل الى فتنة الاعجاب بالنفس .. أى توهم قدرتها على الانفراد - فى زعمها - بالتحلى تلقائيا بميزة لا يبلغها الغير - ان بلغها - الا بمشقة ، بابتكار ما يعجز عنه الغير ، ولكن - صدقنى - أننى أتحامل على نفسى ، كعادتى ، فلم أكن فى ذلك اليوم الأغبر الا ضحية قلمى ، وهو منساق كالأعمى مع تصاريف اللغة ونزواتها ، فالذى ارتكب الحماقة هو لا أنا ، وكل كاتب يعلم ، كما هناك زلة لسان ، هناك زلة قلم .

دعنى أروى لك ما حدث :

كنت أكتب مقالا أريده أن يتصف بالظرف لكى لا أثقل على

القراء . وأعجبنى هذا الظرف فغفلت عن قلمى وهو منساق مع تدفق اللغة وايحاءاتها فاذا بالظرف ينقلب الى تظرف مفتعل . أقرع .. فجاء قميئا باردا سمجا ، دمه كالبق ، وانساق قلمى بسبب هذا التطرف المجوج فخرجت منه نكتة سخيفة جدا ، لا أدرى كيف رضى أن يكتبها أو أن يسكت عليها بعد أن كتبتها فلا يشطبها ولم أنتبه فوق ذلك الى قدرة هذه النكتة السخيفة على اصابة الأبرياء .

ودهشت أبلغ الدهشة حين حدثنى صديق أعزه وقال لى ان عشرة أشخاص على الأقل حملوا اليه هذا المقال وقالوا له وهم يضعون الأصابع السبابة على النكتة المكتوبة : أنظر ، انه يقصدك، هذه هى حقيقته .. خذ حذرك منه وان زعم أنه صديقك .

وصديقى لحسن الحظ رجل كريم ابن ناس . فزجرهم وقال لهم : لا شأن لكم بما بينى وبينه ، أنا أدرى به منكم .. كم كنت أتمنى أن أرى وجوههم حينئذ ، أظنها علتها حمرة الكسوف والخجل ؟. هيهات !. يا رب .. لماذا يتطوع أناس بالوقيعة بين الناس .. يظنون أن هذه الوقيعة سلم يرقون به الى الفوز بصداقة من ورائها منفعة ، ولو كان كل الناس كصديقى .. هيهات .. لهووا من هذا السلم حقراء أدنياء فتندق على الأرض رءوسهم الماوية كالبطيخ الفاسد . ولكن رءوسهم لاتزال سليمة كالزلط لأنهم وان كثروا ، فأمثال صديقى قليل .

الحماقة الأخرى التى ارتكبتها مردها أننى أفرطت فى الحماس - كما أفرطت من سابق فى التظرف - فوقعت هذه المرة فى التهور .. كان ذلك في حديث عن رجل أجنبى رأيته يتولى عنا خدمة الخط العربى والعناية به ، أعترف بأننى مطبوع على التعصب والغيرة الشديدة فى كل ما يمس أمتى ، لا أرضى الا أن نقوم نحن بما هو واجب علينا ، لا نقعد فننتظر أن يتولاه الغير عنا ، استسلمت للانفعال والحماس ، وبالغت في صب قوائم اللوم على هذا القعود منا ، من فرط التحمس وقعت فى التهور .. فأنكرت جهودا كثيرة بذلت عندنا ، غمطت حق أصحابها ، ظلما منى ، وكان ينبغى أن أثوب للرشد فأشيد بفضلهم وأشكرهم .. وأظننا من الشعوب التى تهيم بتعذيب أنفسها بالنقد المرير والاستخفاف بكل ما تفعل .

أنصحك اذن - وان وثقت أن نصحى سيضيع هباء عندك - لا تفرط فى التظرف السمج ، وأن لا تفرط فى الحماس لئلا تقع فى التهور الأحمق .

(« التعاون » ، العدد ٣٨٥ ، ١٩٧٠/٧/٥ ، ص ١٠)

لقــاء الحيــاة ••

فى التحول من الصبا الى الشباب حين بدأت أستفيق للقاء الحياة ، وأتأمل فى وجوه الناس ، وأقول أين طبعك من طبائعهم ، هذه المحاولة للاندماج فى المجتمــع تستحق أن توصف بأنها عصيبة ، لأنها تجرى فى سراديب النفس وسط أسرار ووراثات مجهولة ، وغالبا بلا وعى بها ، وبدون ارشاد من أحد وبلا سند من التجربة ، ومع ذلك فسيطغى أثر هذه الفترة القصيرة العابرة على بقية العمر كله . من ذلك اللقاء تخلف فى ذاكرتى احساس أمض قلبى حينئذ بأن الناس ينقسمون الى ثلاثة أنماط .

نمط تتمثل له الحياة فى صورة قنيصة ممتنعة ماكرة ، لا تؤخذ مواجهة دون رضى منها واستسلام ولا تؤخذ غلابا ، وفى وضح النهار ، بعد قياس قوة القانص بقوتها فى معركة شريفة تستنكر الغدر . وانما تؤخذ بالالتفاف من ورائها ، بالحيلة والمؤامرة . ليس هذا فحسب ، بل يحس هذا النمط أيضا أنه يسلب هذه النقيصة لنفسه من يد الغير ، لو فتشت صدره لوجدت فيه ضمير اللص . ليست المعركة بقياس القوى – ثنائية بين القانص ، ومكر القنيصة ومكر بقية الناس .

يوصف هــذا النمط بأنه حـويط ، مـاء من تحت تبن ، أزرق الناب . ورأس الفضائل عنده في الصمت والتكتم والمداراة ، والشك والريبة والحذر . كلامك اليه مهما كان بريئا وجاء عفوا من غير سابق تدبر ، حتى فى أتفه الأمور ، تتلقاه أذن له تبدى الذكاء - بمعناه اللغوى ، وتتلقاه الأذن الأخرى - وهى تبـدى البلاهة - بالفحص والامتحـان والتقليب على الجنبين لتعـرف مـا تحتـه ومـا وراءه ، لأنه مؤمن أن كل الناس مثله .

تستطيع أن تقول ان هذا النمط مصاب بحول لا فى عينيه بل فى أذنيه . باب بيته لا يفتح مباشرة على الحوش المكشوف ، بل على ممر مسقوف طويل يتعرج ذات اليمين أو ذات اليسار قبل الوصول . وغلق النافذة ألذ على يده من فتحها .

ليس هذا حاله مع الدنيا فحسب ، بل مع الآخرة أيضا ، فقد أحسست أن الجنة عنده هى أيضا قنيصة تؤخذ بالمكر والحيلة ، الشريعة نصوص للظواهر لا نبراس للقلوب ، والتدين مغامرة مضمونة : ان صدق الوعد فقد كسب وخسر غيره ، واذا لم يصدق فلن يخسر شـيئا ، سيكون مثـل بقية النـاس .. لن يكسب أحـد شيئا دونه .

والنمط الثاني عنده أن الحياة هى عملية نصب كبيرة . انها مسرحية عالمية : وراء الستار تيه بلا حدود أو معالم ، ليس به ساعة تدق ، وفيه حشد من المخاليق الغلابة ، كلهم سواء فى المنشأ

والمصير . وأمام الستار حيز محدود مكانا وزمانا .. هذا يقوم بدور الملك ، وهذا بدور الخادم . هذا هو الضاحك وهذا هو الباكى ، أبطال وكومبارس . ولكن كل هذا لعب فى لعب ونصب فى نصب ، وعما قليل سيسدل الستار ويبتلع التيه كل الممثلين ، فاذا هم من جديد جملة من المخاليق الغلابة ، كلهم سواء فى المنشأ والمصير . ولا يكفى هذا اللعب كله ، بل المسرحية ذاتها غير مفهومة لا معنى ولا فرضا ، ومع ذلك لا ينقطع تمثيلها ليلة بعد أخرى ، وتقابل بالتصفيق والصفير معا .

وهذا النمط لا يعيش الحياة ، بل « يمثل » أنه يعيش الحياة . انه نمط مأساوى . فى القلب ضياع ، وعلى الشفاه ابتسامة الاستخفاف . هذا النمط هو عادة ظريف ، خفيف الدم ، بحبوح ، مستهتر ، فضفاض ، متلاف سكير ، يكربه عنف الدهاء ، بل فرط الذكاء . المحنة عنده هي الفصل الأخير فى المسرحية ، مؤجل تمثيله لما بعد ، لا داعى لأن يشغل به نفسه الآن ، ولكنك اذا فاجأته بسؤالك : من إنت وماذا تفعل ؟ لحار ولم يستطع أن يجيبك .

والنمط الثالث عنده أن الحياة حيوان ضخم ، وأنه هو وليدها ، حيوان مثلها ، هى أكل وشرب وتناسل ، كل متعة أخرى اذا لم ترتد الى لذة حسية فهى هراء . قد يكون من خريجى أكبر المعاهد ولكن لغته ستظل دائما هى لغة الحواس ، والجنة عنده دوام نسيانه بين لذائذ الدنيا الحسية .

تبينت هذه الأنماط فانقبض قلبى ، أحسست أنها تخدعنى عن الحياة . كنت واثقا أن الحياة فى حد ذاتها متعة ليس كمثلها متعة . ولكن يهدرها ويفسدها ويثلم شرفها أن تؤخذ بالحيلة والمكر والمؤامرة – كالنمط الأول – أو بالنصب وتمثيل دور من الأدوار دون أن أعيشه كالنمط الثانى ، أو أن أعيشها معيشة الحيوان – كالنمط الثالث .

ان أردت تعلم هذه المتعة فينبغى لى أن أتبين أنها أكبر نعم الله سبحانه علىّ ، وأن ألقاها رافع الرأس وجها لوجه ، لقاء حبيب بحبيب ، وتمنيت أن لو أصبح شاعرا يتغنى بالحياة . وما ألذ أحلام الشباب .

(« التعاون » ، العدد ١٧٤ ، ١٩٦٦/٦/١٩ ، ص ٨)

مجـــرد ظهـــور**

كم عمر التليفزيون ؟ لم ينفع مر الزمن الطويل ولا الألف والعادة في تهدئة عنف هذه الهجمة ، انها لاتزال تتكرر معى بنفس الشدة وصدق الوفاء لم أظهر فى التليفزيون مرة الا كان حتما أن أقع من غد - وربما على الريق - فى هذه التجربة القاسية ، يلمحنى فى الطريق أحد معارفى القريبين أو المتطوحين فيهجم علىّ ، وقد ينتقل جريا من رصيف الى رصيف معرضا نفسه للدهس ويوقظنى من سرحانى ويشد على يدى ووجهه متهلل بالبشر والفرح كأنه يحمل الىّ أجمل تهنئة على فوز عظيم :

- رأيتك أمس فى التليفزيون ..

يتملكنى حينئذ شعور غريب ، كما تتملك الأرض فى تلك اللحظة قدمى المسمرتين ، نصفه تبليم ، لا شك أن فمى أصبح نصف مفتـوح إنفك رباط شفتى السـفلى ، إندلق دلـو من البلاهة على وجهى ، لسـانى يحـاول أن يعثر على كلمـة غير بائخة فلا يفلح ، لا أدرى ماذا أقول له ؟ هل أقول متشكر ! أشكره على ماذا ؟ من الغرور أن أشكره لأن عينه تكحلت برؤية طلعتى البهية ، ثم - يا

أخى - لكن من الذى ينبغى عليه أن يشكر الآخر ، أنا أم هو ؟ ها أنذا أهرب من الغرور فأقع فيه بلا وخز من الضمير ، وكل مغرور يزعم أن ليس فى العـالم رجـل حقــانى مثـله ، أم أقول له : طيب يا سيدى ، وماذا جرى فى الدنيا أو للدنيا ؟ فأجابهه بتقريع مهما تستر بالأدب أو المزاح فانى أكرهه لنفسى ، لست قواما على الناس حتى أوزع عليهم التقريع بالعدل والقسطاس ، وأشد الناس ارهافا للأعصاب هم الحنابلة القوامون على الناس . إنى أحب المثل البلدى القائل « واحد شايل دقنه ، وانت تعبان ليه ؟ » وان كنت لا أدرى معنى كلمة شايل هنا ؟ أهى محلوقة هذه الدقن ، أم مرفوعة فى الهواء من الكبر والخيلاء ؟

ونصفه احساس بالحسرة ، أظل أتطلع الى وجهه وأحملق فى عينيه مستجديا عبارة تثلج صدرى يضيفها على هـذا الخبر العظيم ، خبر رؤيته لى فى التليفزيون ، أستجدى منه أن يقول لى : وكان كلامك حلوا وأفكارك رائقة ، أو حتى أن يقول : وافقتك على رأى وخالفتك فى رأى ، أو حتى - والله العظيم - أن يقول : كان كلامك زفتا وآراؤك قطرانا > فأنا لم أذهب للتليفزيون وأنا مصاب بالخرس ، لا لشىء الا لأن تظهر للناس طلعتى البهية ولا أنبس بحرف ، بل ذهبت لأتكلم ، لأقول شيئا نافعا فى ظنى ، أملا أن يكون كذلك فى حكم الناس ، الناس العقلاء طبعا ! الذين يفهمونها وهى طائرة .

نظرتى المستجدية منه ولو قرشا لا تظفر منه حتى ولا بمليم ، أتنازل عن آمالى الكبار وأستجدى منه ما هو دونها بكثير ، مادام أن فرحته برؤية طلعتى البهيـة قـد جبت عنـده كل مقـدرة على السمع ، ولا أقول على الفهم ، فلا أقل من أن يقول لى : وكان وجهك مشرقا كالبدر ، أو حتى : لحظت انك كنت متجهما مقطب الأسارير فلماذا ؟ أو حتى - والله العظيم - كنت كالأعمش فى غمرة الضوء ! لازلت أحفظ له انسانيته فلا أتوقع منه أن يهبط الى الدرك الأسفل من الحماقة فيكلمنى عن أناقة بذلتى وشياكة رباط عنقى ، أو اختلاف العصا التى أحملها معى كل مرة من جلسة الى جلسة ، ثم يخامرنى الشـك فى هذه الانسانية حين أتهرب من نظرته وأنا أهرب منه ، انها تكاد تنطق بلمحات من جوع مرير أو مرارة جائعة ، هذا هو سر لمعانها ، كأنه يغبطنى على فوز نلته ولم ينله هو بعد .. هذا الفوز العظيم هو الظهور فى التليفزيون .. مجرد الظهور .

هل ظلمته ؟ ربما انتقل اليه الهوس بالعدوى البصرية .. فهو معذور ، فلعل أغلب الذين يظهرون فى التليفزيون تترنح أعطافهم بفرحة الظهور فى التليفزيون ، مجرد الظهور ، بذلة التليفزيون هى بذلة الأعياد ، السوداء المخططة أو الكحلى المنغمشة ، ورباط الرقبة تم شراؤه فى اليوم ذاته ، والحذاء لميع ، والجلسة بحساب واللفتة بتقدير ، والتخشب على أتمه ، حتى الأطفال فى برنامج « ماما

سميحة » يتزاحمون بالمناكب ليتحقق لهم الفوز العظيم .. الظهور في التليفزيون مجرد الظهور .

بل قد قبل بعض من أكبرهم وأجلهم أن تستذلهم خيلاؤهم قبل الجلوس أمام العدسة في برنامج أدبي في العلالي يعني عن سارتر أو بيكيت مثلا ، فالى اليوم لا أزال أذكر شهقتي حينما قابلت صديقي هذا ذات مساء في دهاليز التليفزيون ، فقد خيل الىّ أنه أصيب فجأة بارتفاع مخيف في ضغط الدم ، أو أن مرضا جلديا عجيبا قد طفح على وجهه فأصبح لونه لا هو أصفر ولا هو أحمر ولا هو أبيض بل بين بين ، لعل أصدق تشخيص أنه أصيب لتوه بفقر شديد في الدم ، فحول عينيه هالات سود ، وأنا لا أعرفه يكحل جفنيه .. هجمت عليه أقول له : مالك سلامتك ، دعني أصحبك الى البيت .. فاذا به يبتسم لي ويقول :

– قيل لي أن المياج ضروري لأجل أن تكون صورتي طبيعية .

فقلت له وأنا أكتم خيبة أملي : طبعا ، طبعا !!

(« التعاون » ، العدد ١٣٩ ، ١٧/١٠/١٩٦٥ ، ص ٨)

المهنـــة **

حكم كثيرة موروثة ، عملة متداولة ، ولكنها عند تجربتها تتبين أنها من قبيل (الماركة) التى يصطنعها صاحب القهوة لمحاسبة الجارسون دفعة واحدة – لا بالقطاعى – بعد التشطيب ، (ماركة) مستديرة تنوب مناب قيمة كوب من الشاى و (ماركة) مضلعة تنوب مناب قيمة شيشة حمّى لا يريد صاحب القهوة أن يخوت دماغه ويجد الفكة كلمـا مر الجارسون أمامه حـاملا طلب الزبون ، من السياسة والراحة تأجيل ساعة الحساب ، ساعة يتبين المكسب من الخســارة ، ما أحـلى التعـامل بالوهم !.. ولكنــك اذا ذهبت بهـذه (الماركة) الى السوق ونزلت الى معتركه الفعلى الرهيب لما وجدت بائعا يقبلها منك ، أو حتى صرافا يفكها لك ، ليفك زنقتك .. حكم كثيرة هذه حالها ، صالحة طالما بقيت خارج السوق ، باطلة ، فالصو .. داخلة – رغم بريقها – ربما بسبب بريقها .. دلالة على أن تداولها كان بغير دعك وامتحان ، كل ما أريد لها من صنعها هو فض مجالس ، أو اغلاق فم ثرثار ، أو نفض اليدين من عناء الحساب ، والتهرب من المواجهة .

وقد تعلمت الاحتراس من هذه الحكم التى تشبه (ماركة) صاحب القهوة .. كالحكمة القائلة : « من فكر فى بلوى غيره هانت عليه بلواه » ، فهذه الحكمة تقفز الى ذهنى ويرددها لسانى على الفور كلما أخذ انسان يشكو لى هما له ، بدلا من أن يهز رأسه اقتناعا بها ويطيب خاطره ويشكرنى عليها أحس انه امتلأ بمرارة يأس تضاف الى همه ، جلله بواخ هيهات أن يغفر لى أننى سببه ، نطقت نظرته بالغيظ ، وربما بالكراهية ، هذا - أولا - وقع النصيحة على النفوس .

وكل الحكم مصوغة فى قالب نصائح ، يد الناصح هى العليا ، كأنها تملك الكون ، أين كل عقل وحنكة من عقلها وحنكتها .. ويد المستنصح هى الدنيا .. فارغة ، مفلسة ، سقيمة ، ذليلة بكونها غناجة ، لأنها محتاجة .. فكيف لا تكره اليد الدنيا اليد العليا التى تتعاظم عليها .. شاطرة لأنها على البر ، ثم - وثانيا - يقول لى الشاكى فى سره : جئتك بسرطان فوصفت لى قرص اسبرين .. وما شأنى أنا بهموم الآخرين ، هى ظن والثابت هو همى ، همى أنا ، طمعت أن أجد عندك الفرج لا نكدا فوق نكد .. بتحميلى أيضا هموم الآخرين .. المخرج عنده من مأزقه أن يلجأ الى التحدى .. تقول لى نظرته بجرأة مفتعلة انه مستعد لأن يبادل همه بأى هم للآخرين ، اذ هم خيابة ، أما هو سيعرف كيف يختله ويكسر شوكته .

ما نلت من استخدام حكمة « من فكر فى بلوى غيره » الا أننى خسرت صاحبى بدلا من أن أكسبه ، فأعتزم الاحتراس من قادم مع غيره ، ولكنى أقع دائما فى عين المطب .

جميع المقدمات مجعولة للفضفضة بمخزون من فلسفة فارغة ، شـــبيهها صـــوت يصـك الآذان ويزكم الأنوف ، وفى أغلب الأمر لا علاقة لها بصلب الموضوع ، لهذا أقرأ كتبا كثيرة بعد عدة صفحات من الفصل الأول .. لأن المقدمة لابد ساحت عليه أيضا ، فاغفر لى ما تقدم من ذنبى وسخافتى وتعال الآن بكلام خفيف لجعل الحكمة اياها مثار ابتسام لا مثار فلسفة ، فهى تثب لذهنى فابتسم كاما كان الطلب منى أن أملأ استمارة لاستخراج بطاقة أو لتسجيل نزولى فى فندق ، أجيب على سؤالها عن اسمى وتاريخ ميلادى بسهولة ، لا عن يقين بل عن اصطلاح بينى وبين الناس لا ينقصنى تشككى فيه وعجبى منه . فاذا جئت لسؤالها عن « المهنة » تردد القلم فى يدى ونظرت فى وجه من يناولنى الاستمارة فى بلاهة وخجل .. يالها من بلوى ، حينئذ أعمد لتهوينها على نفسى الى التفكير فى بلوى الآخرين ، بلوى الصديق صلاح طاهر مثلا لو كان مكانى .. ماذا يكتب ؟. هل يقول « فنان » فيحسبه مناول الاستمارة ممثلا أو مخرجا للمسرح أو السينما ، وربما أيضا من طقم الراقصين فى فرقة للفنون الشعبية ، وفيهم من لا يقل كرشه عن كرش صلاح الآن .

ليس فى لغتنا اليوم كلمة مبهمة مختلطة سايحة مثل كلمة « فنان » .. اذن هى لا تصلح .. هل يقول « رسام » ؟.. هذه الكلمة خرجت من التداول ، اختص بها رسام المساحة الذى يقيس حدود الأطيان ، واذا توكل على الله وقال : مصور .. فهل يضمن ألا يجيبه سؤال : مصور فوتوغرافي حضرتك ؟.. هل يمكن أن يجيبه : لا بالزيت .. أو بالفحم ؟.

حالى مهما شق أخف من حالة ، أفكر فى بلواة فتهون بلوتى ، الحكمة اياها نفعت هنا .. فأنا أتردد رغم الإبتسامة ماذا أقول .. هل أقول « كاتب » فلا أضمن أن يجيئنى سؤال : كاتب حسابات ؟. كاتب طبونة ؟. كاتب عمومى أمام محكمة ؟. أم أقول : أديب .. الأدب صفة .. فهل يصلح أن يكون صنعة أو مهنة .. هل الأدب ألبسه عند الشغل ثم أخلعه عند الفراغ .. وماذا يبقى على جسدى ؟. قلة أدب .. أم أقول : « مؤلف » فأتعرض لخيبة الأمل اذا نفيت لمناول الاستمارة بعد سؤاله أننى مؤلف أغانى ، ورأيت أن احترامه لى قد قل .. فأنت ترى أن لا مهنة لى تصلح للكتابة فى استمارة .. وأخيرا اهتدى الى الحل وأكتب « بالمعاش » لا أقصد أننى كنت موظفا ثم بلغت الستين ، بل اننى لا أزال أعيش .. وهى مهنة حلوة ولا ريب !..

(« التعاون » ، العدد ٣٧٥ ، ١٩٧٠/٤/٢ ، ص ٨)

كوكو

نشـــأت فى أسرة محافظة لم يطرق التجديد بابها ، جدتى وأمى وأنا نصطف على سجادة الصلاة جنبا لجنب ، طرحة جدتى يختلط بياضها الثلجى بشعرها الأشيب وكأنها هالة القداسة ، وطرحة أمى اطار بديع لصـورة بديعة ، وكانت عينى تغافلنى وتختلس النظر الى المرآة لترى كيف أبدو فى الطرحة وأنا أعقد أنشـوطتها تحت ذقنى .

ولا أبالغ اذا قلت أننى لم أر زوجى قبل كتب الكتاب الا مرة واحدة يوم جاء يخطبنى ، ولم أرفع نظرى اليه حياء ، وتمت مراسم الخطوبة وأيام الاستعداد للفرح وأنا فى شبه حلم ، ولما جاء الوقت الذى أغادر فيه دارنا ربتت جدتى على كتفى وهى تقول : « هذه سنة الله ورسوله يا بنتى ! » بكيت ، روحى صعبت علىّ ، خيل الىّ أن أسرتى باعتنى بيع السماح .

واسـتيقظت فوجدت زوجى قصير القامة ، أبطن ، ضيق الصدر ، حقيقة ومجازا ، اذا خلع نظارته مع الليل بدت له عينان ذابلتان وجفنان منكسران . يحضننى كطفل خائف يحتمى فى صدر أمه ، ولكنى لا أنكر أننى أحببت يده الصغيرة الرخصة

وأناملها السرحة ، وكنت أرق لها كلما لمست كتفى أو أخذت يدى ، آخذها بين يدى اذا أردت مصالحته بعد خصام ، (وما كان أكثره بيننا) وأقبلها ، وأقول له ، كأن كلامي موجه اليها :

– صافى يا لبن ؟

ولكن كيف يصفو اللبن فى اناء تهب عليه أعاصير السموم ، لم أطق صبرا ، وانفجرت يوما ، ثم لازمت فراشى ، وهجرت الأكل والشرب ، وجفانى النوم ، تؤرقنى ذكرى الكلمات الجارحة التى نطق بها لسانى ، وأعجب كيف صدرت منى ، وأنا التى تكره الاساءة وتمقت الأذى ..

ولما رأتنى أمى فريسة للضنى أخذتنى الى دارنا ، وعدت الى فراش صباى ، وشد ما كنت مشتاقة اليه ، وأخذت من جديد أستمع لتمتمة جدتى وأمى في صلاتهما ، أما مكانى فى السجادة فشاغر ، فقد أصبح بينى وبين الصلاة هوة كبيرة .

ولكنهم أعادونى لزوجى وأنا لا أزال مريضة ، فصبرت وابتسمت وجعلت تسليتى مراقبة الطريق من بعيد وأنا جالسة في مقعد تحت شجرة فى حديقتنا الصغيرة ، الى هذه الأيام يرجع بدء معرفتى بجارنا الجديد الذى سكن قبالتنا وأنا غائبة فى دار أمى ، وبفضل ثرثرة الخدم علمت طرفا من حياته ، يعيش وحده مع دادة سودانية تؤاكله فى بعض الأحيان على مائدته ، يطالعنى وجهه اذا ما

استيقظت حين أراه يفتح النافذة فيستبشر به الصباح ، وأرقبه وهو داخل خارج بالنهار ، أو تتصيد نظرتي شبحه بالليل وهو يظهر ويختفي وراء أشجار حديقته ، طاهر متوسط القامة ، ضخم الرأس ، وضاء الجبهة ، كأنه يسير في الحياة على هدى نورها ، له عينان صافيتان ، ليس في نظرتهما تساؤل ولا حيرة ولا فحص ولا استجداء ، يمشي بعض الأحيان كمشية التجارة ، أهو مقوس الساقين ؟ أم تراه كان في شبابه من هواة الخيل ؟

ترى كيف كانت قبضته على عنان جواده الجامح ، وضمه ركبتيه على بطنه ، يقال أن الجواد الأصيل تسره من صاحبه هذه الضمة القوية وان آلمته قليلا .

ماله لا يزوره أحد ؟ لم يروا امرأة تجتاز عتبة بابه ، ومع ذلك لم يكن يعيش وحيــدا منفــردا ، بل أحاطت به أسرة كبيرة : فهــذا « تيدى » كلبه الضخم و « مرجانة » نسناسته المربوطة في سلسلة في ركن من الحديقة و « كوكو » ببغاؤه الذى اتخذ من النافذة مرصــده ، وفي الشــرفة قفص كبيــر ضــخم مملــوء بعصــافير «البيروش» لا تنقطع زقزقتها ، ما بين صفراء وزرقاء وبيضاء وخضراء .. تعيش زوجين زوجين ، بينها من الاناث من هي شريرة مشاكسة ، تحب الجدل وتستثير العراك ، ومن هي وديعة مخلصة لعشــها ، ومن تغازل ذكر جارتها وتخطفه منها .. لم التعالى

والتعامى اذن وغرائزنا وطبائعنا هى صورة مطابقة لغرائز الحيوان وطبائعه ، أهذا جميل أم فظيع ؟

اذا عاد طاهر لداره بعد الظهر تلقفه « تيدى » من على الباب ، يقفز أمامه فى الهواء حتى يكاد يوازى رأسه ، ثم ينكص ويثب اليه ويضــع يديه على كتفيه ، ويمــد لســانه يريد أن يلعق وجهــه أو كفيه (هذه هى قبلته) ، ثم يتركه ويجرى أمامه للدار ، ثم يعود ويدور حواليه وهو يبصبص بذنبه .. ثم ينفض جسمه كأنما يريد أن يزيل عنه وخم كآبة انتظار الحبيب .. لقد بدأت حياته بعودة صاحبه ، كل هذا و « مرجانة » تكاد تقطع سلسلتها ، تقفز على قوائمها الأربع قفزات عالية لا تسمع لوقعها صوتا ، ثم تذرع المساحة المباحة لها ذهابا وايابا ، قلبى يفهم ما فى قلب « مرجانة » من الغيرة ، يسير اليها طاهر فتقفز إلى كتفه ، وتحيط رقبته بذراعيها كأنها طفل يخشى الوقوع ، وكل ما يعرفه من حروف الهجاء الهمزة ..تتسع حدقتاها وتضيقان وهى تحملق فى وجه « تيدى » ثم تنتصب هالة من الشعر حول رأسها كلما كشر « لها تيدى » عن أنيابه .. نظراتها انتقالات خاطفة من الرعب إلى الجشع إلى العفرتة وحب الأذى ، إلى الشعور بالجرم إلى خوف العقاب ، أما « تيدى » فلا يأبه « لمرجانة » هو عاشق كامل لا يفهم الغيرة ويحتقرها ، فالغيرة تشغل من القلب مكانا تركه الحب خاليا ، ثم إذا صعد طاهر إلى حجرته أطلق العصافير من قفصها فتحوم حوله ..

وكان « كوكو » مسرة صبيان الحىّ كلهم .. يحب الصبيان معاكسة الببغـاء إذ يتمثل فيـه لهم – فى صـورة مضحكة – كل ماعانوه هم أنفسهم من تعثر النطق عند أول عهدهم بالابانه عن النفس .. لا يرد « كوكو » على سبابهم الخالد ، والذى لم امتد إلى بعض معرفة سـببه وأصل منشأة – أبوك السقا مات » – إلا بقوله « ياولد ! ياولد ! » ثم ينادى بين الحين والآخر « دادة .. دادة » صرخاته تذكرني بسيدة عجوز شعثاء الشعر ترملت فى شبابها .. ولكن لا تبخس « كوكو » حقه ، فهو يقلد أيضا مواء القط ونباح الكلب ، وكل هذا وهو فى ريشه الملون كالممثل القدير يقوم بدور فارس فى ثياب زاهية ، متعال متكبر ، لا تصل أمواج الحياة ، مهما علت ، إلى ركبتيه .. وما مر شحاذ إلا كان له نصيب من مطبخ طاهر .. لم أره قط يعطى سائلا رغيفا مكسورا ..

واستيقظت صباح يوم علـى ضجة فى منزل طاهر ، حتى دادة ، بحر النيل ، خرجت إلى الشارع ، الجناينى بعمامته الصفراء التقليدية يجرى من هنا وهناك ، وطاهر فى بيجامته ينادى (كوكو ! كوكو) ويشير إلى رأس شجرة عالية . وبقيت بالنافذة حتى فهمت من فتات الحديث ان طاهر فتح للببغاء قفصه فى الصباح ليهبط – كعادته – إلى الحجرة ، فإذا به يقفز إلى حافة النافذة – وكانت مفتوحه . فلم يسرع طاهربغلقها ، وأراد أن يجرب إلى أى مدى سيتمتع « كوكو » بحريته ، كم تكون فرحته ،

أتصورها وأنا بعيدة – لو طار « كوكو » إلى شجرة قريبة حتى إذا ناداه صاحبه هرع إليه .

ولكن حلمه لم يتحقق ، والحرية تؤخذ ولا تعطى ، فقد طار « كوكو » إلى الشجرة ، ثم بدا عليه حين نعم بالحرية فى أحضان فروعها أنه نسى كل عهد وميثاق ، رآه خادم أحد الجيران فتطوع لاستنقاذه ، وأتى « برأس العبد » وحاول أن يلمس بها « كوكو » فإذا بالببغاء يطير إلى شجرة أبعد ، ثم إلى شجرة أخرى .. ثم اختفى ..

لم تكن العاطفة التى بدت فى صوت طاهر هى الحسرة والحزن على ضياع « كوكو » بل الخشية على الطائر المسكين من غوائل الليل إذا أطبق على الكون ، ترى أين يكون منامه ، وهل يجد أكله وشربه ؟ هذا الذى ظل طول عمره يأكل ويشرب من يد سيده ..

وآويت إلى فراشى بعد العشاء فاذا بشبح ضيف طارق يقدم إلى نافذتى ويحط عليها بوجل ورهبة .. ثم سكن لا ينبض فيه عرق ، لم أتحرك من مكانى ، بل حولت عنه نظرتى ، حتى لا أزعجه ، وإذا به بعد قليل يدير رأسه وينظر إلىّ من جنب ، هذا المتكبر فى الأسر ذليل فى الحرية ، وظل مخه الضئيل يستوعب شيئا فشيئا ما تراه عينه المدارة إلى . هل يأمن لى ؟ هل أغدر به ؟ أخذت أحدثه من قلبى وأقول له :

- كوكو ! لا تخف ، أنت فى دار أمان ، لن نختص بك ، ونحملك على كره صداقة جديدة قد لا ترتاح لها . تريد أن تعود لصاحبك ؟ لوجهه ؟ لصوته ؟ سآخذك إليه الليلة إذا شئت ستبيت معه من جديد تحت سقف واحد ، يخشى أن يطلع نهار لا تلقى فيه على صاحبك تحية الصباح ؟ لا تخف ! تعال قع فى يدى فلن يطول بعد الليلة عذابك ! »

قفز كوكو إلى مائدة التواليت ، ولا أدرى عن عمد أم جاءت قفزته عفوا ، لماذا اخترتنى أنا وحدى يا كوكو دون بقية الجيران ؟ ما الذى تحســـه ؟ هل قدومك فأل ؟ أم تراك فهمت ما لم يفهمه غيرك .. وتحرك كوكو حتى وصل إلى حافة المائدة ثم تريث كأنه يقيس مدى ارتفاعه عن الأرض ، وبعده منى ، قد تجمعت روحه كلها فى منقاره ومخالبه ، وانطفأت ألوانه ، وتركته صابرة لا آبه لمرور الزمن ، وإذا به يفلى صدره وما تحت جناحيه ، ففهمت أن قد جاءنى الاذن ، وقفزت إلى النافذة وأغلقتها .. تضاءل « كوكو » من الرعب وأدرك أنه خدع ، ورأيت نظرته تنطق باليأس ، ثم أحنى رأسه واستسلم ، لم يستطع معى جدالا ، وكان فى يدى بعد قليل ، وبعد قليل كنت أنا بنفسى فى منزل طاهر .

***

احمر وجهه قليلا حين دخلت عليه ، ولكن سرعان ما تحدثنا كأنه

يعرفنى منذ زمن طويل وأنا أعرفه ، وتهاوت الينا من الليل أستار ليس لرقتها مثيل ، ستار وراء ستار ، ونحن لا نزال منكشفين لأعين النجوم .

ولما جلست بجواره سألت نفسى : أين شممت من قبل هذا العطر ؟ أتعرف شذى حقول الفول ابان أزهاره ؟ رائحة الخشب الغض حين يشقه المنشار ؟ رائحة صدور المرضعات ؟ وجاء « تيدى » واقعى تحت أقدمنا وأغمض عينيه ، لحظة ، لحظة واحدة ، امتلأت أذنى بوسوسة الشيطان ، ولكنى نظرت إلى عينى طاهر الصافيتين وامتلأ قلبى طهرا .. وأحسست انى أملك ثروة لايحلم بها إنسان ، فيها الأمان من الفقر مادمت على قيد الحياة ..

***

زارتنى فى دار أمى صاحبة من ذلك الصنف الذى يطوف بالمنازل وينقل الأحاديث :

– هل سمعت ما يقوله عنك زوجك ؟ يقول أنه طردك لأنك غير شريفة .

وكانت تنتظر منى أن أنطق فى السباب وذكر الفضائح ، ولكنى ابتسمت لها وقلت بهدوء ..

– معه الحق ، كنت غير شريفة طول اقامتى معه .. أما الآن فقد تبت .. صدقينى !

رقم الايداع ٩٩٠٥ / ١٩٩١

I . S . B . N

977 - 07 - 0134 - 3

الفهرس

ص

روايات الهلال تقدم

الرواية الحائزة على جائزة نوبل ١٩٩١

تأليف

نادين جورديمر

ترجمة

محمود مسعود

تصدر ١٥ يناير ١٩٩٢

كتاب الهلال القادم

محاكمة جلجاميش
(هو الذى طغى)
فى عشر لوحات درامية

بقلم

عبد الغفار مكاوى

يصدر ٥ فبراير

هذا الكتاب

يوافق الخامس من يناير ، عيد ميلاد أستاذنا الجليل يحيى حقى وإيمانا بدوره الرائد والحى والمؤثر ، فى القصة والرواية والنقد الأدبى والمقال الأدبى ، ورعايته لاجيال من الكتاب ، ووضعه بذرة الاكتشاف والاهتمام بالفنون الشعبية .

فإن « كتاب الهلال » يشارك جمهرة المثقفين والقراء عامة فى تقدير وتحية هذا الفنان العظيم ، فى مناسبة جميلة .. تلك هى عيد ميلاده فيقدم كتاب « كناسة الدكان » .

وفى هذا الكتاب اطراف من السيرة الذاتية للكاتب فنعيش معه وجدانات الطفولة واليفوعة ، بمخاوفها وتهويماتها ، وافكارها متأملين كيف تتكون أفكار الطفولة واحكامها على ما يطرق سمعها ويقع تحت بصرها ويتراءى فى أحلامها .

وكيف تتشكل – فى هذه السن البعيدة – العبرة والدرس ، والحكمة الذاتية ، وكيف تحفظ الذاكرة معالم ورسوم الفجر الباكر لحياة إنسانية يقظة ، لا يخدش ذلك كله ، أن يسطرها الكاتب ، وقد استوى عوده ، فنحن نعايش – مع الكاتب – فى هذه الفترة عالمين : عالم طفولة الكاتب ، وعالم نضجه ، وكيف تتجادل معالم الطفولة وحواشيها مع صخب النضج وعاصف تياراته ، وكيف يقف الكاتب حانيا على طفولته مشفقا عليها من قسوة العقل ناضجا

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية واحد وعشرون جنيها وفى بلاد اتحادى البريد العربى والأفريقى والباكستان سبعة عشر دولارا أو ما يعادلها بالبريد الجوى وفى سائر أنحاء العالم خمسة وعشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية ، وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عالية عند الطلب

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد/ عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

